## الفصل التاسع

# أعلام الكتاب

## ١

### إبراهيم[1] بن العباس بن محمد الصولى

كان جده صول حاكمًا لجُرجان مع أخيه فَيْروز ، وكانا تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبَّهان بالفرس ، ودخل صُول الإسلام على يد يزيد بن المهلب والى خراسان للحجاج ، وأصبح من خاصَّته ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى مطالع القرن الثانى الهجرى حارب تحت لوائه حتى قُتل معه فى موقعة العَقْر بالقرب من الكوفة . وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودُعاتها ، ونشأ له ابنه العباس فى ظلال تلك الدولة ، ورُزق ولدين : عبد الله وإبراهيم ، وكان عبد الله أكبر سنًّا من أخيه. وقد وُلد إبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة ، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وكأنه هو وأخاه تأدَّبا عليه فى باكورة حياتهما ، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور فى عصر المأمون. ومن المؤكد أن إبراهيم لزم — على عادة لِداته — حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يُتقن العربية ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة . وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة فى دواوين الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين وزير المأمون ، حين كانا لا يزالان فى مَرْو قبل تحول المأمون

(١) انظر فى ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١٠ / ٤٣ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ٦ / ١١٧ ومعجم الأدباء لياقوت ١ / ١٦٤ ومروج الذهب ٤ / ٢٣ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان فى إبراهيم وتاريخ الطبرى فى ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمنى فى كتاب الطرائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

إلى بغداد . ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعملهما ، فرحل إليهما ، وتصادف حين وصوله أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى على بن موسى الرِّضا . ويمدح إبراهيم ولى العهد الجديد ، ويهبه عشرة آلاف درهم من دراهم كانت ضُربت باسمه ، ويقال إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه ، وأبقى بعضها لكفنه فيما بَعْدُ وجهازه إلى قبره[1] . وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه ، ومن حينئذ ظلَّ يعمل فى الدواوين إلى أن توفى سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضياع للمتوكل ، ويقول صاحب الفهرست : «كان إليه ديوان الرسائل فى مدة جماعة من الخلفاء»[2] .

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جَرَّت عليه بلاء عظيما ، ذلك أن ابن الزيات الوزير — وكان صديقًا له — ولاَّه على معونة الأهواز وخراجها ، ثم تنكَّر له ، فوجَّه إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه ، فتحامل عليه تحاملا شديداً ، وقال إن أموالا كثيرة لم تُؤَدَّ إلى بيت الخراج ، وغضب ابن الزيات ، وأمر بعزله واعتقاله فى ولايته . وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يَسْلُ فيها صديقه ابن الزيات وحده ، بل بَلاَ فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة ، إذ قَلَبَتْ له منهم جماعة ظهر المِجَنّ مثل أحمد بن المدبر ، الذى كان يُوغر صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عمَّاله واستخراج الأموال منهم ، مما جعله يزهد فيما بعد فى صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سُئل فى ذلك قال : « ما مَثَلُ الإخوان إلا كمثل النار قليلُها مقنعٌ وكثيرها محرقٌ أو قليلها متاعٌ وكثيرها بَوَارٌ » . ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة فى الصداقة والصديق ، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها . ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهو ماض فى النكاية به ، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه ، ومن أطرف ما كتب له هذه الرسالة[3] :

« كتبتُ إليك وقد بلغت المُدْية المَحَزَّ ، وعَدَت الأيام بك علىَّ بعد عَدْوِى بك عليها ، وكان أسوأُ ظنى وأكثرُ خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ،

---

(١) الأغانى ١٠ / ٥٢ .

(٢) الفهرست ص ١٨٢ .

(٣) الأغانى ١٠/٥٦ ومعجم الأدباء ١/١٧٠ .

وتكفّ عند أذاها ، فصرتَ علىّ أضرّ منها ، وكفّ الصديق عن نصرتى وبادر إلىّ العدوّ تقرّبًا إليك . وكتب تحت ذلك :

أخٌ بينى وبين الدّهـ ـرِ صاحبَ أيّنا غَلَبا
صديقى ما استقام فإنْ نَبَا دَهْرٌ علىّ نَبَا
وَثَبْتُ على الزمان بهِ فعاد به وقد وَثَبَـا
ولو عاد الزمانُ لنـا لعـاد بهِ أخاً حَـدِبَا »

والرسالة توضّح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر ، ويقول المسعودى : « كان كاتبًا بليغًا وشاعراً مجيداً ، لا يُعْلم فيمن تقدم وتأخر من الكتّاب أشعر منه »[1] . ويقول ابن الجرّاح فى كتابه الورقة : « أشعر نظرائه الكتّاب وأرقهم لساناً ، وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعتُ الناس للزمان وأهله غير مدافع »[2] ويقول أبو الفرج الأصبهانى : « كان يقول الشعر ثم يختاره ، ويُسْقط رَذْله ، ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط ما سُبق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير ، وربما لم يَدَعْ منها إلا بيتًا أو بيتين »[3] . وشعرُه مقطوعاتٌ حقًّا ، ولكنها مقطوعات تَرْقَى إلى مرتبة رفيعة فى البلاغة ، مَثَلُها مَثَلُ هذه الرسالة القصيرة التى كتب بها لابن الزيات راجيًا أن يخلصه من محنته ، فكل كلمة فيها قد اختارها ذوق أدبى مصفًّى ، وكل عبارة قد أحكمت ، أحكمتها يد صَنَاع ، فالمدية قد بلغت المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى ، والأيام تعدو بابن الزيات عليه بعد أن كان يعدو به عليها ، لقد كان ينتصر به عليها ، فإذا هى تقهره به ، وما أدق قوله له فى رسالة أخرى[4] :

وكنت أعدّك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا

فناصره أصبح قاهره . ويتوالى الطباق فى الرسالة ، فالسكون يقابل الحركة والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو . وظل ابن الزيات لا يعفو عنه ، حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم عرف الواثق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبه إليه

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٣ .
(٢) كتاب الورقة ص ١٣٦ .
(٣) الأغانى ١٠ / ٤٣ .
(٤) الأغانى ١٠/٥٧ ومعجم الأدباء ١/١٧١ .

أبو الجهم ، فأمر ابن الزيات بردّ حربته إليه وانتظامه فى حاشيته وبلاطه مصونًا ، فبسط لسانه فى غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة ذامًّا هاجيًا . وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذى جعل المتوكل يقرّبه منه منذ أول عهده بالخلافة ، فقد كان بدوره ينقم على ابن الزيات أشياء كثيرة ، فلم يكد يتقلّد الخلافة حتى صادر أمواله ، وعذبه فى تنّور ملىء بمسامير من الحديد حتى مات .

وأصبح إبراهيم بن العباس حظيًّا عند المتوكل ، فقلّده ديوان رسائله ودواوين مختلفة ، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل الكتب التى تصدر عنه ، سواء أكانت منشورات أم عهوداً لأولياء العهد أم فتوحًا أم تهنئات بالأعياد أم تعازىَ باسم الخليفة ، وأحيانًا ينصّ الطبرى أن هذا الكتاب أو ذاك من إنشائه ، وأحيانًا لا ينصّ . ومن أوائل ما كتب له المنشورُ الموجّه إلى عُمّاله فى الآفاق بشأن النصارى وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطَّيالسة والزَّنانير ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يستهله على هذه الشاكلة[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزّته التى لا تحاوَل وقدرته على ما يريد ، اصطفى الإسلام ، فرَضيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسُلَه ، وأيّد به أولياءه ، وكنفه بالبِرّ ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرّأ من الشبهات ، معصومًا من الآفات ، محبوًّا بمناقب الخير ، مخصوصًا من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها ، وأكرمَ أهله بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سَعَة جزائه وثوابه ، فقال فى كتابه فيما أمر به ونَهَى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : ( إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القُرْبَى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى يعظكم لعلكم تذكّرون ) » .

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام . فهو لا يكتب ما يَرِدُ على ذهنه عَفْواً ،

---

(١) طبرى ٩ / ١٧٢ .

بل هو يفكر فيما يكتب ، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة مُحْدثا بينها ضروبًا من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطَّعًا ، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع ، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذى يوازن بين العبارات دون أن يُحيلها سجعًا وتنميقًا خالصين . وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل فى شمالى أرمينية وإحراقه لمدينة تفليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل ، وهزمته هزيمة ساحقة ، وأُخِذَ أسيراً ، فضُربت عنقه وصُلبت جثته وحُمل رأسه إلى سامرَّاء . ولإبراهيم بن العباس رسالة فى هذا الفتح نوَّه بها القدماء ، وفيها يقول [1] :

« قسَّم الله عدوَّه أقسامًا ثلاثة : روحًا معجَّلة إلى عذاب الله ، وجُثَّة منصوبة لأولياء الله ، ورأسا منقولا إلى دار خلافة الله ، استنزلوه من مَعْقل إلى عقال ( أغلال ) وبدَّلوه آجالا من آمال ، وقديمًا غذَّت المعصية أبناءها ، فحلبتْ عليهم من درّها ( لبنها ) مُرْضعة ، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة ، وركبت بهم مخاطرها مُوضِعَةً ( مسرعة ) حتى إذا وثقوا فأمنوا ، وركبوا فاطمأنوا ، وانقضى رَضاع وآن فِطام ، سقتهم سُمًّا ، ففُجِّرت مجارى ألبانها منها دمًا ، وأعقبتهم من حُلْو غذائها مُرًّا ، ونقلتهم من عز إلى ذل ، ومن فرحة إلى تَرْحة ، ومن مسرَّة إلى حَسْرَة ، قَتْلاً وأسْراً ، وغلبة وقَسْراً ، وقَلَّ مَنْ أوْضع ( أسرع ) فى الفتنة مُرْهِجًا ( مثيراً ) واقتحم لهبَها مؤجِّجًا ، إلا استَلْحَسَته ( تبعته ) آخذة بمخنَّقه ( بحلقه ) وموهنةً بالحق كيده حتى جعلته لعاجله جزَراً ، ولآجله حطبًا ، وللحق موعظة ، وعن الباطل مزجرة ، أولئك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ، ولعذابُ الآخرة أكبر ، وما ربك بظلاَّم للعبيد » .

وبلاغة الصولى التى اشتهر بها واضحة فى هذه الرسالة ، فهو يُعْنَى بكلامه محمِّلا له معانى غزيرة ، ومُطْرفًا فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه الفقرة . وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعانى تنتهى إلى الطباق ، فقد كان إسحق بن إسماعيل فى معقل فأصبح فى عقال ، وكان فى آمال وحياة رغدة فأصبح فى آجال وموت رهيب . ويضيف إلى ذلك الصور ، فقد أرضعتهم

---

( ١ ) مروج الذهب ٤ / ٢٥ .

المعصية من لبنها وأطمعتهم باسطة لهم فى الأمانى العذاب ، وأسرعت بهم مخاطرها . وكل تلك صور متلاصقة . ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال ، إذ يقول . انقضى رضاع وآن فطام . والكناية واضحة . وعاد إلى التصوير ، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأضواء . ويعود إلى الطباق ، فيضع الرضاع مع الفطام والمر مع الحلو والذل مع العز والترحة مع الفرحة والحسرة مع المسرة . ثم يعود ثالثة إلى التصوير ، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب ، وتعم حتى لتأخذ بمخنّق كل شخص ، وحتى تجعله فى دنياه جزَراً وقطعًا من اللحم تنوشها السباع ، أما فى الآخرة فتجعله حطبًا ووقوداً للنار . ويختم الفقرة بآى من القرآن . والطباق اللون البديعى العقلى الذى كان يروع العباسيين يكثر فيها ، كما يكثر التصوير ، وكأن إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التى كانت تخلب معاصريه ، فهو يبدؤها بالتقسيم ، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح فى مثل : معقل وعقال وآجال وآمال ، وفرحة وترحة وأسراً وقسراً وعاجل وآجل . ومضى يوغل فى الموازنة بين عباراته ، وإذا هو لا يكتفى بما قد يحدث فيها من تقطيعات صوتية ، إذ يطلب ازدياداً فى التلاؤم وفى الجرس ، فليس يكفى أن تتقابل العبارات وتتوازن ، بل يحسن أن تلتحم نغماتها وإرناناتها ، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه . واحتفظت كتب الأدب بتحميده لهذه الرسالة ، وهو يمضى فيه على هذا النحو[1] :

« الحمد لله معزّ الحق ومُذيله ( ناصره ) وقامع الباطل ومُزيله ، الطالب فلا يفوته مَن طلب ، والغالب فلا يعجزه مَنْ غلب ، مؤيدِ خليفته وعبده ، وناصرِ أوليائه وحِزْبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقَّه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأنار بهم سبيله ، حمداً يتقبَّله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقبِ نَصْرِه ، وسوابغ نعمائه » .

والتحميد يحمل نفس الخصائص المبثوثة فى الرسالة ، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يَلَذّ كلامه الأسماع والآذان ، كما يَلَذّ العقول والأذهان ، بملأماته بين الكلمة والكلمة فى الجرس ، وبما يستخدم من طباقات

---

( ١ ) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٤ .

وجلسات وتصويرات مختلفة . ولم تصلنا رسالة الخميس التى كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولى المتوكل الخلافة ، ولكن وصلنا التحميد الذى وضعه فى صدرها على هذا النحو[1] :

« أما بعد فالحمد لله الذى جلّت نعمه ، وتظاهرت مِنَنُه ، وتتابعت أياديه ، وعمّ إحسانه ، إله كل شىء وخالقه ، وبارئه ومصوّره ، والكائن قبله ، والباقى بعده ، كما قال فى كتابه : ( كلُّ شىء هالكٌ إلا وَجْهَه له الحكمُ وإليه تُرْجَعون ) العالى فى مشيئته والقاهر فوق عباده المتعالى عن شبه خَلْقه : ( ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ) خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيلَ إلى معرفته ، بما نَصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبَره ، وصرّفهم فيه من صنعه ، كما قال جلّ جلاله : ( الذى أحسنَ كلَّ شىء خَلَقه وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين ، ثم جعل نَسْله من سُلالة من ماء مهين ، ثم سَوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدة قليلا ما تشكرون ) . وذلك كله مِنْ خلقه إياهم بتمثيله ما مثّل لهم من الدلائل التى نصبها لهم والأعلامِ التى جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويسّر لهم خواطرهم وفِكَرَهم ، والهيئة التى هَيّأها لهم ، ليقع الأمر والنهى عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يجشمهم ما يَقْصُر عنه وُسْعهم ، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقّوا به رحمته ورضوانه والخلودَ فى النعيم المقيم والظلِّ المديد والعيش الدائم ، كما قال تعالى ذكره : ( إلاّ مَنْ رَحِمَ ربُّك ولذلك خلقهم ) . وكان من نَظَره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هُداه ، ويوضّحون لهم سبيله ، ويَنْهَدونهم إلى رحمته ، ويَعِدونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويَبْسُطون لهم توبته ، ويحذّرونهم سخطه ، ويبينون لهم سُنَنه وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلّمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ( ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَة ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنة وإن الله لسميعٌ عليم ) وكان من رأفته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البَيِّنَة ، والشواهد الناطقة التى أظهر بها صدقهم ، وأقام بها

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٢ .

برهانهم ، وأوضح بها دليلهم ، وأثابهم عملَ سواهم ليكون أدْعَى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأوكد للحجة على مَنْ أبَى ذلك منهم » .

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما : نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب فى الهدى والرشاد ، ونعمه أيضاً وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين . ونراه فى مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه ، وهو أصل من الأصول الأساسية عند المعتزلة ، فهو منزه عن التحيز فى جوهر وعرض ، لا يدركه حِسٌّ ولا يحيط به خيال ، منزه عن كل شبه بالآدميين فى خَلْقهم وصفاتهم . وليس من الضرورى أن يكون من المعتزلة ، فيكفى أن يكون على صلة بمباحثهم ، وهو ما نريد إثباته ، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالى كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله فى صفاته وذاته وإبداعه للكون والإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته . وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمل فى النظام الكونى وما بثَّ الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة . ويصوّر القرآن كما فى آيات خلق الإنسان التى اقتبسها الصولى كيف أنشأ الله الخلق إنشاء بديعاً وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكمالاتهم ، وإنه لحرى بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر فى نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى . ويبثّ الصولى هذه الفكرة فى الشطر الأول من تحميده . ويخرج منها إلى الفكرة التى طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى طريق الحق والخير ، إذ لم يخلقهم عبثاً ولا دون غاية سامية ، فقد خلقهم ليتّبعوا هداه ، وليقع الأمر والنهى عليهم ، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهُدى ، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينتظرهم فى الآخرة من ثواب وعقاب ، مبينين لهم السنن والشرائع التى تكفل لهم السعادة فى الدارين ، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب إلا من تاب وأناب فإن الله غفور رحيم . وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعانى فى ألفاظ جزلة رصينة ، يجرى فيها التقطيع الصرفى الذى ذكرناه آنفاً ، وإن لم يبلغ مداه فى الرسالة السابقة ، إذ لم يتحول به إلى إرنانات السجع التى شاعت فيها ، وكأنما كان مشغولا هنا عن السجع بالمعانى التى أثارها فى تحميده والتى جعلته يتمثل ببعض

آى الذكر الحكيم. وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور إلا ماجاء فى النادر وعفو الخاطر . ومن تحميداته فى أحد الفتوح [1] :

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العزّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً فى موطن من مواطن التحاكم بين عباده إلا جعل أولياء الحق منهم حزبه وجُنْده ، وجعل الباطل بهم فَلاً ( هزيمًا ) منكوبًا ، ودَحيضًا ( باطلا ) زَهوقًا إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرّقةً ماجُمِعَ ، ومبتّرةً ( مستأصلة ) ما أعدّ ، وقائدة بأشياعه إلى مَصْرَع الظالمين ، حتى يكون الحق الطالبَ الأعزَّ والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياء الحق الأعْلَيْن يَداً وأيْداً (قوة ) وأشياعُ الضلال الأخْسَرين أعمالاً وكيداً ، قضاءُ الله وسنته ، وعادة الله وإرادته ، فى الفئة المنصورة أن تَعِزَّ فلا تُرَام ، وأن يمكّن لها فى الأرض كما مكّن للذين من قبلها ، وفى الفِئَة الناكبة عنه أن تذلّ ، فتكونَ كلمتُها السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

ونحسُّ قدرته على اصطفاء الكلمات فى هذا التحميد ، ولا نصل إلى قوله : « وجعل الباطل بهم فَلاً منكوبا ودَحيضا زهوقا » ، حتى يتجسَّد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يُعْنَى بالموازنة الدقيقة بين العبارات. ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله : « يكون الحقُّ الطالبَ الأعزَّ ، والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياءُ الحق الأعْلَيْن يداً وأيْداً ، وأشياع الضلال الأخْسَرين أعمالا وكيداً » وكأن العبارات توضع فى صفوف لا فى سطور ، لتأخذ كل كلمة بيد أختها ، وكأننا فى مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها ، فكل كلمة توشك أن تُمْسك بيد أختها فى العبارة التالية لعبارتها . فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل ، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل . وبالمثل تتلاقى فى العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعلين يداً وكلمة الأخسرين أعمالا . فالكلمات فى العبارات تتجاذب تجاذبًا شديداً ، فى الصوت والجرس والأداء وفى المعانى المتقابلة المتناقضة ، فقد عمّ فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعًا من صلة القُرْبى ووشائج الرحم . وانظر كيف وضع إبراهيم بن العباس كلمة « يداً »

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٦ .

بجانب كلمة « أيْداً » طلباً للتلاؤم فى الجرس الذى قد يخفى أحياناً ، وأحياناً يتضح وضوح الشمس فى كبد السماء . وفى ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصنعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والجنان . ويُثْرِى الرسالة باقتباس من القرآن الكريم ، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه المونقة كقوله فى هذا التحميد : « الأخسرين أعمالا » . ودائماً نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المُطْنِبة والأخرى المجملة الموجزة ، حتى لكأنما يصوغ أمثالا كما أشرنا إلى ذلك آنفاً . ومن خير ما يصوّر ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، والرسالة تمضى على هذا النمط [1] :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ، مما قوّم به من أوَدٍ ( عِوَجٍ ) وعَدَّل به من زَيْغٍ ، ولمّ به من منتشر ، استعمالَ ثلاثٍ ، يقدّم بعضهن على بعض ، أولاهنّ ما يتقدّم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع حَسْمُ الداء بغيرها :

أناةً فإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدها وعيداً فإنْ لم يُغْنِ أغْنَتْ عَزَائِمُهْ »

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فملأت نفسه إعجاباً ، وأومأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وكان حاضراً — أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ خبّأها الله لك ، وذخيرة ذخرها على دولتك . ويقال إن البيت فى هذه الرسالة أول شعر نفذ فى كتاب عن الخلفاء العباسيين. والمتوكل إنما أُعجب بالرسالة لأن إبراهيم أدّى الغرض الذى كانت تُحْتَسَبُ فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أى تقصير ودون أى إخلال ، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد . وكأننا لا نقرأ صيغاً متعاقبة فى رسالة ، وإنما نقرأ حكماً وأمثالا ، لدقة المعانى ودقة أدائها وصياغتها ، وقد أجرى فيها ضروباً من التقطيعات الصوتية ، وإن لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح فى أوائلها ، ولم يلبث أن أضاف فيها سجعة طريفة ، كما أضاف صورة بديعة إذ عبّر عن الحرب بحسم الداء . والكتاب بحق

---

( ١ ) معجم الأدباء ١ / ١٨٧ .

يصور مراناً طويلا على استخدام الكلام ووَضْعه فى مواضعه ، بل قل إنه يصوّر خبرة طويلة امتدت عشرات السنين . ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها قِصَراً كتب بها فى شفاعة إلى أحد أصدقائه يزكّى رجلا يستحق العناية به[1] :

« فلانٌ ممن يزكو ( ينمو ) شكره ، ويحسن ذكره ، ويَعْنيني أمره ، والصنيعة عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها :

وأفضلُ ما يأْتيه ذو الدِّين والحِجَى　　إصابَةُ شكرٍ لم يَضِعْ معه أَجْرُ »

والرسالة موجزة ولكنها تؤدّى الغرض منها أداء واضحًا ، وقد استخدم فيها إبراهيم بن العباس السجع ، وبلغ من شدة تدقيقه فى المعنى أن أخرج البيت الذى ضمّنه الرسالة مخرج الأمثال . وكان كُتّاب الرسائل يكتبون فى عيدى الفطر والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء ، وقد يوجهونها إلى حكام الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويذكّروهم واجبهم ، من ذلك قوله فى رسالة[2] :

« أما بعد فإن لكل فرعٍ أصلا ، عنه مَوْرِدُه ومُسْتَنْبَطُه ، وإليه مَرْجعه ومَوْئِلُهْ ، ومتى رُجع من أصول الأمور إلى تأثلها ( تأصّلها ) وتمكّنها ، رُجِع من فروعها إلى استتبابها واستقامتها . وأفضل ماتدبّره أمورُ دين الله وخلافته ، وحقوقُ الله وعباده . فكان الأصلُ وزكاؤه ( نماؤه ) ما جمع بإذن الله سكون الدّهْماء ( العامة ) وصلاح البَيْضَة ( الولاية ) وأمْن السِّرْب ( الجماعة ) وتظاهُرَ النِّعم فيما قَرُبَ وبَعُدَ ، ودنا ونأى ... فافْعَلْ ذاك مُعَانًا على أمرك » .

والترادف والازدواج واضحان فى السطور الأولى من الرسالة ، فورده يليها مستنبطه بنفس المعنى ، وبالمثل مرجعه تليها موئله ، وتأثلها يليها تمكنها ، واستتبابها يليها استقامتها . وفى ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن ، وفى كلامه عن الأصول والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفًا ثقافة فقهية ، وقد جمع الأصول الدالة على حسن الحكم وتدبيره فى أربعة : سكون الناس دون إحداث أى فتن أو ثغرات مما يدل على رضاهم عن حاكمهم ، وصلاح الولاية فى شئونها السياسية والاقتصادية

(١) الأغانى ١٠ / ٥٣ ومعجم الأدباء ١ /١٧٨ .　(٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٨٩ .

والإدارية ، وأمن الناس على نفوسهم ، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يُعانون البؤس والضنك فى الحياة . ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة ، من ذلك تعزية باسمه إلى طاهر بن عبدالله واليه على خراسان ، وفيها يقول[1] :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ أرضى الله فى نعمته بشكره وفى مصائبه بالتسليم له ، مَنْ فَهِمَ ما فى شكر النعم من استدعاء تمامها ، وما فى التذلل للمقادير من استحقاق رضوانه ، وقد جعل الله محلَّك من الحالتين جميعًا محل المتقدم بنيَّته ومعرفته . والله يُمْتع أمير المؤمنين فيك بصالح قَسْمه فيمن مضى ، والجارىَ على من بَقِىَ ويبقى ، حتى يؤدِّىَ الفناءُ الذى لا بقاء معه إلى البقاء الذى لا فناء بعده . وأمير المؤمنين يعظك بالله ، وهو أحق مَن وعظ به ، ويُرْشدك من إيثار الله لما نَدَبك له منه . . . فقدِّمْ حق الله عليك بطاعتك له فيما أمرك به ، واتَّقِ الله فى مواقع أقداره بك ، تَقْتَضِ بذلك من ثواب الله أفضلَ عِوَض الصالحين » .

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعانى ، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على نعمه واستسلامه لما يُنزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه . والله يمتع أمير المؤمنين به حتى يطوف به طائف الفناء الذى لا بقاء معه ، والذى ينتقل به إلى البقاء الذى لا فناء بعده . ويقول له : قَدِّم حق الله عليك بالطاعة له والرضا بقدره ، وبذلك تستحق ثوابه ، هو خير عوض للراضين المقرَّبين . وفى كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم ابن العباس تزخر بالسجع ، ويبدو أنه كان يستخدمه أحيانًا فى جوانب من رسائله مُسْهِبًا فيه ، على نحو ما نرى فى القطعة التالية التى احتفظ بها ياقوت فى معجم الأدباء إذ يقول :

« ووجَد أعداءُ الله زُخْرُفَ باطلهم ، وتمويهَ كذبهم سَرَابًا بِقِيعَة ( يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ) وكوَميض بَرْق عَرَض فأسرع ولمع فأطمع ، حتى إذا انحسرت ( انكشفت ) مغاربه ، وتشعَّبت مولِّيةً مذاهبه ، وأيقن راجيه وطالبه ، أنْ لا مَلاذ ولا وَزَر ، ولا مَوْردَ ولا صَدَر ( صدور ) ولا من الحرب مفرّ ، هنالك ظهرت عواقبُ الحق منجيةً ، وخواتم الباطل مُرْدِيةً ،

---

( ١ ) جمهرة رسائل العرب ص ١٨٢ .

( ٢ ) معجم الأدباء ١/ ١٩٠ .

سنَّةُ الله فيما أزاله وأداله ( هزمه ) ( ولن تجد لسنَّة الله تبديلا ) ولا عن قضائه تحويلا » .

والقطعة سجع خالص ، وتحمل اقتباسات من آى القرآن ، وكلماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف ، وتجرى فيها الخصائص التى ذكرنا لإبراهيم بن العباس ، ففيها الازدواج والتكرار فى مثل : « زخرف باطلهم وتمويه كذبهم » ، ومثل « أزاله وأداله » ، وفى الكلمة الأخيرة جناس ناقص . وتلقانا بعض طباقات مثل : « ولا مورد ولا صدر » ومثل « عواقب الحق وخواتم الباطل» ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب . وكأنه كان فى نثره مثل شعره وما وصفه به أبو الفرج ، كما مر بنا ، يكتب ثم يختار ، وما يزال يُصْلح ويُسْقِط حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة . وله توقيعات بديعة تدور فى الكتب الأدبية ، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصًا ويمدح آخر ، فوقَّع فى الرسالة[1] :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنعه ، وللمسىء من النكال ما يَقْمعه ، بذل المحسن الواجبَ على رَغْبة ، وانقاد المسىءُ للحق رهبة » .

والسجع واضح فى التوقيع ، ولكن المهم طرافة التقسيم . ويقول المسعودى : « ولإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان من كلامه قد جمعت» . ويَرْوى عنه أنه كان يقول : « مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه ، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى الارتقاء »[2] . ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل ، وفى الحق أنه كان كاتبًا بليغًا بلاغة رائعة .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٦١ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٦ .

## ٢

### الجاحظ [١]

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حَدَقَتَيْه وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كنانى ولاء وإن جَدّه فزارة كان عبداً أسود جَمّالا لعمرو بن قلع الكنانى . واختُلف فى السنة التى وُلد فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفى سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلد فى العقْد السادس من القرن الثانى للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويُرْوَى عنه أنه قال فى أواخر حياته يشكو من الفالج ( الشلل ) والنقرس ( الروماتزم ) : « أنا فى هذه العلل المتناقضة التى يتخوّف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة »[٢] . وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة مسقط رأسه ، وفى مطالع الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لِداته من الصِّبْية ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من النحو والفقه والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شبّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون فى كل فن ، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات ومحاورات بين المتكلمين من كل الفرق . وكان يختلف إلى المِرْبد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما ينشدونه من الأشعار ، وكان المِرْبَدُ سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ

---

(١) انظر فى الجاحظ وحياته وأخباره وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد ١٢ / ٢١٢ ومروج الذهب ٤/ ١٠٩ ومعجم الأدباء ١٦ / ٧٤ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان فى عمرو ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٥٦ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ ولسان الميزان ٤/ ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان الاعتدال ٣/ ٢٤٧ وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/ ٣٨٦ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٥٤ والجاحظ لطه الحاجرى (طبع دار المعارف) والجاحظ لشارل بلات ( طبع دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ) .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ /٢١٩ ومعجم الأدباء ١٦/ ١١٣ .

العصر الأموى . وفى أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيْحان[1] أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان فى حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويُرْوَى أن أمه ضاقت بانهماكه فى الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق ملىء بكراريس أوْدَعها البيت ، وقالت له : ليس عندى من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكسب . فذهب إلى الجامع مغتماً ، ولقيه مُوَيْس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء فى الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدّثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمّالون إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التى قَدَّمْتِيها إلىّ[2] . وكأن مُوَيْس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمِرْبَد وما كان يأخذه عن جِلّة العلماء أمثال الأصمعى وأبى زيد والأخفش وأبى عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبى الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظّام من المعتزلة ، ولا عند كبار الفقهاء والمحدّثين فى عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلّف أو يترجم فى البصرة أو فى بغداد تتكاثر نسخه فى أيدى الورّاقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسطاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التى حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر فى الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقرّرة معروفة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا فى بغداد[3] بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره فى دكاكين

---

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .

(٣) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفى مواضع متفرقة .

الوراقين ، ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب فى اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[١]. ويقول أبو هِفّان : « لم أرقط ولا سمعت من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان »[٢]. وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شىء يقرؤه إلا ويرتسم فى ذهنه ، ويظل فى ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدّمة الطويلة التى وضعها بين يدى كتابه الحيوان ، وهى نحو مائة صفحة فى تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التى صنّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شُغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته فى عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئاً بأبى الهذيل العلاّف ، وكلما اشتهر معتزلى لزم حلقته ، وكان من أهم من لزمهم النظام[٣] ، وكان لا يبارَى فى المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقّن ذلك عنه ، وسنراه يطبقه فى كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحَل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم ( النظام ) لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »[٤] وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذى دفع الجاحظ دفعاً للتزود من جداولها بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذى غرس فى نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه فى كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات فى عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهداه طول تفكيره فى آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كوّنت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الخياط المعتزلى فى كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلا[٥]. ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

---

( ١ ) الفهرست ص ١٧٥ .
( ٢ ) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .
( ٣ ) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .
( ٤ ) الحيوان ٤ / ٢٠٦ .
( ٥ ) الانتصار ص ١٠٣ وانظر فى آراء الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٥ .

ويبدو أنه كان يَلْقَى كثيراً من الإهمال فى أول أمره ، حتى كان يُضْطر حين يؤلف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابهين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العَتَّابىّ أو سَلْم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأتى الناس لروايته[1] عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفى مقدمتهم بشر بن المعتمر وثُمامة بن أشرس ، حتى إذا شُغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مَرْو إلى بغداد أشار عليه ثُمامة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة فى هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حَدَّ له بما كتب [2] ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة ، ونظن ظنّاً أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام[3] ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكتفيا — فيما يبدو — براتبه . وربما كان قبحه الذى عُرف به هو السبب الحقيقى فى أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفى بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية فى النوادى والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامرّاء فى عهد المعتصم ، ويتحوّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامرّاء دار مُقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرّف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثال أبى العَيْناء والجَمّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صلته بابن الزيات يقف فى صفه ضد خصمه أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفّى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل ، وكان يَضْطَغِنُ على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذّبه فى تَنُّور محمىّ بالنار حتى يموت . ويقرّب المتوكل فى هذه الأثناء ابن أبى دؤاد ، ويُرْسل فى طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيّداً ، ويأخذ فى تعنيفه ، ويقول له الجاحظ :

---

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨.

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

« خَفِّض عليك — أيّدك الله — فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيءَ وتحسن أحْسَنُ من أن أحسن فتسيءَ ، وأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجملُ من الانتقام منى » . وعفا عنه ابن أبى دؤاد[1] . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفًا به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة فى الرد على النصارى[2] ، ويغلب أن يكون هذا التكليف فى سنة ٢٣٥ ، وهى السنة التى أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . وكأن مهمته كاتبًا رسميًّا للدولة ظلت قائمة منذ مطالع القرن الثالث الهجرى حتى هذا العام . ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفى كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهْدى الوزراء والقُوَّاد وكبار الكتّاب بعض كتبه يُهْدونه بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبى دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولى حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ماهناك . ويظهر أن مرض الفالج ( الشلل ) ألمّ به مبكراً ولكنه لم يُقْعده عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألّف كتاب الحيوان الذى قدّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج[3] ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقْرس وطال به العُمر ، وإذا صح أنه صحب الفتح بن خاقان فى زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظًا بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مَنْ نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شَعَر به ، ونصفه الآخر منقرسٌ لو طار الذباب بقربه لآلمه » . ووجّه إليه المتوكل فى سنة ٢٤٧ شخصًا يحمله إليه ، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئٍ ليس بطائل ، ذى شِقّ مائل ، ولُعاب سائل ، وعَقل حائل[4] ؟ ! » .

---

( ١ ) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩

( ٢ ) معجم الأدباء ١٦ / ٩٩ وما بعدها ونراه فى كتابه إليه يشير إلى راتب شهرى معلوم كان يجرى على الجاحظ .

( ٣ ) ذيل زهر الآداب للحصرى ص ١٦٥ .

( ٤ ) انظر فى الخبرين السابقين معجم الأدباء ١٦ / ١١٣ .

ويُعَدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر فى العصر العباسى ، وهو فى الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التى نهض بها المعتزلة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوليد للمعانى ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفد ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامى فى كتاباته[1] ، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبيب والتعليل . وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لا يزال يجلب منه الحجة ونقيضها ، تُسْعفه فى ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيًا » بما يستنبطه من خفيات المعانى وما يثيره من دقائق الفكر فى الروح والجسم والحواس والخير والشر والجوهر والعرض ، بل أيضًا من خفايا المجتمع الذى عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكدين ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين فى الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهـــل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفضائل الشعوب ، وكأنك تدور فى كتاباته بمتحف لا تزال تفجؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية فى البصرة أو فى بغداد أو فى سامراء ، ومرة يطوف بك فى ردهات الفكر العميق أو فى بعض آى القرآن ، ومرة يطوف بك فى شارعات المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجوارى ، وهو فى هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

وبجانب هذا الفكر المنطلق فى البحث وفى الوصف وفى الرواية الذى ينقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما فى مدن العراق الكبيرة من صور الحياة فى أشدها ترفًا ونعيمًا وأشدها بؤسًا وضنكًا ، حتى لكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من نقله لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أى شىء حتى

(١) كتاب البديع لابن المعتز ( طبعة كراتشقوفسكى ) ص ٥٣ .

العورات أحياناً ، ويعلن ذلك فى صراحة صريحة دون أى مواربة إذ يقول : «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة .[1]»

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطرافك بالنوادر المضحكة ، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودى : «كتبُ الجاحظ مع انحرافه المشهور (يريد خصومته للشيعة ، وكان المسعودى متشيعاً) تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف مالَ القارئ وسآمة السامع خرج من جِدّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»[2] ويصوّر ذلك الجاحظ نفسه فيقول : «وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضات أن يُحْمَلَ أصحابها على الجد الصِّرْف وعلى العقل المحض وعلى الحق المرّ وعلى المعانى الصعبة التى تستكدّ النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشّحاً ببعض الهزل»[3] . وخصّ الهزل والنوادر بكتابه المشهور «البخلاء» وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشحاء البخلاء فى عصره . وبنَى رسالة له فى هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهى رسالة التربيع والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئاً ، فجعل يصفه فى رسالته وصفا مضحكاً ، ثم حوّله إلى دراسة واسعة فى الجمال ، وهل يكون فى القصر أو يكون فى الطول أو يكون فى النحافة أو يكون فى الامتلاء أو يكون فى التربيع والتدوير ، وهى تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلئ بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى ، وفيها يقول مدافعاً عن المزاح : «ولو استعمل الناس الرصانة فى كل حال والجد فى كل مقال . . . لكان السفه الصُّراح خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم . . . ولكن لكل شىء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه»[4] .

---

(١) الحيوان ٣ / ٤٥ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .
(٣) رسالة فى النساء مجموعة رسائل الجاحظ . نشر السندوبى ص ٢٦٦ .
(٤) رسالة التربيع والتدوير (طبعة شارل بلات بدمشق) ص ٥٣ .

وجَرَّتْ رغبةُ الجاحظ فى أن يتخلَّل كتاباته بالنوادر وما يُطْرِف القارئ رغبةً مماثلة فى أن يورد فى تضاعيف كتاباته بعض آى القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع فى رسائله وكتبه كثرة الاستطراد ، وكان يقصد إليه قصداً ويتخذه مذهبًا فى كتابته ، حتى لا يملَّ القارئ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً فى كتبه ، كقوله فى كتاب الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفِّق — أنى أرشِّح هذا الكتاب وأفصِّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أو رثت الغفلة »[1]. ويقول فى موضع آخر : « ومتى خرج ( القارئ ) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سِداد ... حتى يُفْضى إلى مَزْح وذكاهة ، وإلى سُخْف وخرافة »[2].

ودائمًا يُعْنَى الجاحظ بصياغته ، بادئًا بموادّها من الألفاظ ، فهى تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظة موضعها من الكلام ومن المعنى الذى تؤدّيه ، وهو يصيح فى البيان والتبيين وغيره من كتاباته : التلاؤمَ التلاؤمَ ومطابقةَ الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لسامعيه ، يقول : « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميًّا وساقطًا سوقيًّا فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبًا وَحْشِيًا إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًّا ، فإن الوَحْشِيَّ من الكلام يفهمه الوحشىُّ من الناس ، كما يفهم السوقىُّ رطانة السُّوقىّ »[3]. ودائمًا يُبْدئ ويُعيد فى أن الأسلوب ينبغى أن يكون وسطًا بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشفّ الألفاظ عن المعانى حتى تَلَذَّ الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يُغْنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه ... وإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا ... صَنَعَ فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة »[4]. وأكثر من

---

(١) الحيوان ( طبعة الحلبى ) ٣ / ٧ .
(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

الحديث فى البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحق الذى أعدّ فى قوة لشيوع أسلوب جديد فى الكتابة، هو أسلوب الازدواج، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق فى صفوف متقابلة ، دون أن تتّحد نهاياتها على نحو ما هو معروف فى السجع . هى تتقابل وتتعادل صوتيًّا، ولكن دون أن تحقق التوازن الصرفى المألوف فى السجع ، ومع ذلك تحقق ضروبًا من الإيقاع ، فالكلمات تتوازن وتتعادل ، وكأن كل كلمة فى عبارة تقابلها كلمة فى العبارة التالية على شاكلة قوله : « لا أعلم قرينًا أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة ، ولا أخفّ مئونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرةً ، ولا أقرب مُجْتَنًى ، ولا أسرع إدْراكًا ، ولا أوْجَدَ فى كل إبّان من كتاب ، ولا أعلم نِتاجًا فى حداثة سِنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب » [1] . وبمثل هذا الأسلوب المتدفق الذى يحفّ به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنّف الكتبَ الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبّى عليه كلمة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة فى لسانه وعلى قلمه إلى أقصى حد ، لغة شفّافة يَشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصفّى الذى يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

ودائمًا تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ،إذ يُعْنَى دائمًا بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاءمتها لمعانيها وموضوعاتها وقرّائها ، كما يُعْنَى بِسَرَيان روح الدّعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى نادرة إلى بيان سِمَة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يُحْصَى من المعارف

---

(١) الحيوان ١ / ٤٢ .

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدبًا واقعيًا يصوّر مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائمًا تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعانى والأفكار خائضًا بك فى أعمق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو فى المعرفة أو فى الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل فى كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

ولسنا بصدد البحث العام فى الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلا عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصى ونوادر ، ومرّ بنا أنه طبع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار فى مدح الشىء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومَعْبد فى الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلّد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدبيره فى الكلب والديك ، يقول : « إنما نتنظّر ( نجادل ) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صُنْعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسَخّر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلّ بهما على أن الذى ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكّر فيهما ويُعْتَبر بهما ويسبّح الله عز وجل عندهما » . وهو يردّد ذلك فى جوانب من المناظرة ليبين الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله معبد فى ذَمّه وما قاله النظام فى مَدْحه ، ولخّص ذلك يقول[١] :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذَمّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعايبها ومَثالبها من لؤمها وجُبْنها ، وضعفها وشرَهها ، وغَدْرها وبَذائها ، وجهلها وتسرعها ، ونَتْنها وقَذَرها ، وما جاء فى الآثار من النَّهْى عن اتخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطَرْدها ، ومن كثْرة جناياتها وقلة ودّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نُباحها وكثْرة أذاها ، وتقذُّر المسلمين

---

(١) الحيوان ١ / ٢٢٢ .

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخَلْق المركب ، والحيوان الملفق : كالبغل فى الدوابّ وكالراعبىّ فى الحمام ، وأنها لا سبع ولا بهيمة ، ولا إنسية ولا جنّية ، وأنها من الجِنّ دون الجِنّ ، وأنها مطايا الجِنّ ونوع من المسْخ وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى ، وأنها يعتريها الكَلَبُ من أكل لحوم الناس . فإذا حكينا ذلك حكينا قول مَنْ عَدَّد محاسنها ، وصنّف مناقبها ، وأخذنا فى ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها ، وتفدية الرجال إيّاها ، واستهتارهم بها ، وذكر كَسْبها وحراستها ، ووفائها وإلفها وجميع منافعها ، والمرافق التى فيها ، وما أودِعتْ من المعرفة الصحيحة ، والفِطَن العجيبة ، والحِسّ اللطيف ، والأدب المحمود . وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم ، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها ، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصَبْرها ، ومعرفتها بحقوق الكرام ، وإهانتها اللئام ، وذكر صبرها على الجَفَاء ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذمامها وشدة مَنْعها معاقد الذّمار منها ، وذكر يقظتها وقلة غفلتها ، وبُعْد أصواتها ، وكثرة نسلها وسرعة قبولها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وتردّدها فى أصناف السباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لقَنها وحكايتها ، وجودة ثقافتها ومَهْنها وخِدْمتها ، وجِدّها ولعبها فى جميع أمورها ، بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة ، وبالكتب المنزلة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة الناس لها وفِراستهم فيها ، وما عاينوا منها ، وكيف قال أصحاب الفأل فيها وأخبار المتطيرين عنها ، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها ، وعدد جِرائها ، ومدة حملها وعن سِماتها وشياتها ، وعن دوائها وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتى لا تَلْقَحُ منها ، وعن أعراقها والخارجىّ منها ، وعن أصول مواليدها ومخارج بُلْدانها » .

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التى تُذَمُّ بها الكلاب ، فيذكرها على لسان مَعْبد وينقضها على لسان النظام ، ثم يأتى بمحاسنها ومحاولات معبد فى نقضها ، وفى أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآى القرآن والحديث ومعارف العرب ، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان. مع الرجوع دائمًا إلى التجربة . وهو فى تضاعيف ذلك يستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضًا من عادات العرب . والمناظرة فى رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يُرَبّى فى قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم فى منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته ، أما فى حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التى تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد فى حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والفيل(١) ، فدائمًا الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذى أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، فى كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلا وفى كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته وردّ صاحب الكلب عليه ، وهى تجرى على هذه الصورة (٢) :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللصّ بالنهار كِسْرةَ خُبْزٍ خلاّه ، ودار حواله ليلا ، فهو فى هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلُ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أسمجُ الخلق صَوْتًا ، وأحمق الخلق يقظة ونومًا ، ينام النهار كله على نفس الجادّة ( الطريق ) وعلى مَدَقّ الحوافر ، وفى كل سُوق وملتقى طريق . . . وقد سهِر الليل كله بالصياح والصخَب ، والنَّصَب والتعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجىء والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وَطِئتْه دابة فأسوأ الخلق جزَعًا ، وألأمه لؤمًا ، وأكثره نُباحًا وعُواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وَطِئه إنسان فليست تم له السلامة ، لأنه فى حالِ متوقعٍ للبليَّة ، ومتوقعُ البليَّة فى بليَّة ، فإن سلم فليس على ظهرها مبتلًى أسوأ حالا منه ، لأنه أسْوَأهم جزعًا وأقلهم صبراً ، لأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الخالية له معرَّضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلّ خُلُق فارق أخلاق الناس فإنه

---

(١) الحيوان ٧ / ١٩٣ .

(٢) الحيوان ١ /٢٨٢ وما بعدها .

مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلة ملوكية لقلنا . ولو كان خلاف ذلك ألذّ لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعبثهم به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بشأنه ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكُتّاب من رَضّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائماً فى طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يُهابون ، ولا مشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتريه فى مجامع الأسواق لقَلّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحُرّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وبَعْدُ فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباعَ أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتلتمس المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللصِّ الذى أطعمه أيامًا ، وأحسن إليه مراراً ، فإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهده ببرِّ اللصِّ أحدث من عهده ببِرِّ أهله لم يكلَّف الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضمر اللص من البَيَات غَيبٌ قد سُتِر عنه ، وهو لا يدرى أجاء ليأخذ أم جاء ليعطىَ . . . ولعل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضَّرْب والإجاعة ، وبالسبِّ والإهانة . وأما سماجة الصوت فالبغل أسمجُ صوتاً منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القمارىّ والدّباسىِّ وأصناف الشفانين ( ضرب من العصافير ) فأما الأسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تذم الكلب فى الشىء الذى لا يعمّ . . . وربما كان من الناس — بل كثيراً ما تجده — مَنْ صوته أقبح من صوت الكلب ، فلِمَ تخصُّون الكلب بشىءٍ عامةُ الخلق فيه أسوأ حالا من الكلب . وأما عُواؤه من وَطْءِ الدابة وسوء جزعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَذَبة ( طرف ) السوط أسوأ من جزعه » .

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلبَ الكلب مثالب مختلفة فى وفائه لأصحابه وفى غلظ صوته وفى نومه بالنهار على الطرق وفى الأسواق ، وفى كثرة نباحه وعُوائه حين تطؤه دابَّة . ويَنْقُضُ صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفى الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان ، حتى يزجرهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد فى الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبيعى لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يفى لأصحابه حين يُلْقَى له لِصٌ بكسرة خبز ، فإن محاسبته على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم ، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدرى أجاء ليأخذ أوجاء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلبة ، فالبغل أسمج صوتاً منه ، وكذلك الطاووس الجميل المنظر ، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته فى القبح درجات عن صوت الكلب ، وذلك لا يعيبهم . أما جزعه من وطء والدوابِّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التى وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها فى يده شىء . وهى براعة فائقة فى الحوار وفى الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتيال له بالعقل الثاقب ، مع التأنى والتمكين للحجج ، وهى توضع فى صورة أدبية بديعة ، هى صورة الأسلوب المزدوج الذى تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتعادل إيقاعاتها تعادلا محكماً . وتمتد المناظرة فى الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ فى الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثانى فتشغل بذلك مجلداً ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة فى مساوئ الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثانى . ومما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل فى الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذى يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه المحمدة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه فى الأسحار ، يقول[1] :

---

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل فى الجهل يقوم فى الصباح وفى ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولا ومذهبًا غير مردود ، ولو أن متفقدًا تفقد ذلك من الحمار لوجده منظومًا يتبع بعضه بعضًا على عدد معلوم ، ولوجد ذلك مقسومًا على ساعات الليل ، ولكان لقائل أن يقول فى نهيق الحمار فى ذلك الوقت : ليس تجاوبًا إنما ذلك شيء يتَـوافى معًا ، لاستواء العلة ، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق ، فليس ينبغى للدّيك أن يُقْضَى له بالمعرفة ، والحمار قد ساواه فى يسير علمه » .

وعلى هذا النحو لا يُدْلى صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه النظّام نقضا ، وبالمثل ينقض معْبد محامد الكلب. ويشتد الحوار بين المتناظرَيْن ، ونُصْبح وكأننا بإزاء بانيين لحصون من الأدلة والبراهين لا تلبث حين تقوم أن تنقضّ . وكما قلنا ليس البانيان والناقضان سوى الجاحظ نفسه ، فهو الذى أقام تلك المناظرة التى ظاهرُها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية ، وكان يتعصب للعروبة فى أعماقه ، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامّه ومثالبه ويُضْفى عليه كثيراً من المحامد والمحاسن فى حماسة بالغة .

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهى تموج بطُرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلوّن له وتنكّر فترةً إذ أحسّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية (١) :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سَرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثار الأناة ( الحلم ) فقد خفتُ — أيّدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإنَّ امْرَأً أَمْسَى وأَصبح سالماً من الناسِ إلا ماجَنَى لَسَعيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دَعَا الناسَ إلى ذَمِّهِ ذَمّـوه بالحق وبالباطلِ

(١) زهر الآداب ٢/١٠٨ .

فإن كنتُ اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعَفْوُ المتتابع يُؤْمن من المكافأة (المجازاة) ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك : أرهبنى فأتّقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى — أيّدك الله — لحُرْمة ، فهَبْه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلاّ تفعلْ ذلك لذلك فَعُدْ لحسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فَأْتِ ما أنت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان مَنْ جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المُصِرّ ، حتى إذا صرتَ إلى مَنْ هفوته بِكْرٌ (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الإنعام إلا منك هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم — أيّدك الله — أن شَيْنَ غضبك علىّ كزَيْن صَفْحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سَبَبِى منك ، كحياة ذكرى مع اتصالى سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام » .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، ففيها شعر وخبر ، وفيها المهارة العقلية على التدليل واستنباط الأفكار ، فابن الزيات هو الذى طال تغافله عن الجاحظ ويشبّه التغافل بالإهمال ضربًا من القياس ليصل إلى إغفاله له ، ويسوق دليلا ملزمًا ، فهو دائمًا يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفوَّ عنه آمنًا من المجازاة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يُلْزمه الرضا عنه ، بمنازل متعددة منه ، إما لمنزلة حرمته منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع فى النقمة ، برهانًا ساطعًا ، وإما لحسن العادة ، وإما لحسن الأحدوثة ، وإما لأنه أهل للعفو عن المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطّف له قائلا إنه أول ذنب لى وليس ذنبى إلا النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإنعام إلا منك . فماذا يملك ابن الزيات إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة فى صفوف ، وكأن كل كلمة فى عبارة سابقة تجذب قرينتها فى العبارة اللاحقة ، دون محاولة لسجع أو نغم متماثل فى نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائمًا يكتفى بجمال التوازن العام فى أسلوبه المزدوج. وانظر إلى التوازن الدقيق فى العبارات الأخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و« موت ذكرى

مع انقطاع سببى» توازن «حياة ذكرى مع اتصال سببى». وتكاملُ مثل هذا التوازن فى أسلوبه يتيح له وفرة فى النغم، مع ما يتَّسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة.

واون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية، وهى تُعَدُّ بالعشرات، ويكفى أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل فى حجج النبوة واستحقاق الإمامة وخَلْق القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجدل والمناظرة، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفى بعرض رسالة منها ولتكن رسالته[1] فى فخر السودان على البيضان، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة فى شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذى قتله الحجاج وبلال الحبشى والمقداد الصحابى الجليل أول مَنْ عَدَا به فرسه فى الإسلام، ومثل مكحول الفقيه والحَيْقطان الشاعر الذى يفتخر بقومه، ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب، ويشرح أبياتها، ومثل سُنَيْح بن رباح المعاصر لجرير ويَرْوى قصيدته فى الفخر بالزنج، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس. ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقيال (تبابعة) حمير، ويذكر مشاركتهم فى بعض الأحداث والحركات السياسية فى العصرين الأموى والعباسى، ثم يقول:

«الناس مجمعون على أنه ليس فى الأرض أمة السخاءُ فيها أعم وعليها أغلب من الزنج ... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم. وليس فى الأرض أحسن حُلُوقاً منهم، وليس فى الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا فى الأرض قوم أذرب (أفصح) ألسنة، ولا أقل تمطيطاً منهم ... والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بلَفْتة ولا بسَكْتة حتى يفرغ من كلامه. وليس فى الأرض أمة فى شدة الأبدان وقوة الأسْر أعم منهم فيهما، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذى تعجز عنه

(١) انظر الرسالة فى مجموعة رسائل الجاحظ.
(نشر مكتبة الخانجى) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦.

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هى خصال الشرف . والزنجى مع حسن الخُلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السنّ حسن الظنّ ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالبة أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتم لهم بالسخاء وادعيتم عليهم ما لا يُعْرَفُ من ضعف العقل ، ولوكان هذا القياس صحيحًا لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشى الذى أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ فى الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار . . . ودُهْمَ الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السودَ أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى ، والحُمُرَ ( ج حمار ) السودَ أثمن وأحسن وأقوى ، وسودَ الشاءِ أدْسَمُ ألبانًا وأكثر زبداً . . . وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشد يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سُودَ الجذوع ... وأحسن الخضرة ما ضارع السواد ، قال الله عز وجل : ( ومن دونهما جنّتان ) ثم قال لما وصفهما وشوّق إليهما : ( مُدْهامّتان ) قال ابن عباس : خضراوان من الرىّ سوداوان ، وليس فى الأرض عودٌ أحسن خشبًا ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً . . . ولا أجدر أن ينشب فيه الخَطّ من الآبنوس . . . والإنسان أحسن ما يكون فى العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم فى الجنة ، وأكرم ما فى الإنسان حدقتاه وهما سوداوان ، وأكرم الكحل الإثْمِد ، وهو أسود . . . وأنفع ما فى الإنسان له كبده » .

ونحس كأن الكلام سيول تتدافع ، وهى سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها محصية إحصاء دقيقًا مواقعه فى الطبيعة وفى الحيوان وفى الجماد وفى الثمار والأشجار وفى الزروع والأعواد والأخشاب وفى الإنسان وفى الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

يسوّى فى أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للآذان والأسماع . ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ فى جوهره من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تشويهاً لخلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة ، ويسلك فيهم من العرب بنى سُليم بن منصور وكل من نزل الحرّة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحرّة (حرّة بنى سليم) أن ظباءها ونعامها ، وهوامّها وذبابها ، وثعالبها وشاءها ، وحميرها وخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس فى حرارة دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صحّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان فى عصره ، وكأنما أصبح لهم شىء من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع .

ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصى ، إذ كان بارعاً فى تصوير الشخصيات والنفوس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلى لأسعفته ملكته فى المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارَى فى وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصوّر هذه النزعة القصصية عنده أقصوصته فى كتابه الحيوان عن « القاضى والذباب » وهى تجرى على هذه الصورة الرائعة [1] :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زميتاً [2] ولا ركيناً [3] ، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك . كان يصلّى الغداة [4] فى منزله ، وهو قريب

---

(١) الحيوان ٣ / ٣٤٣ .
(٢) زميتا : وقوراً .
(٣) ركينا : رزينا .
(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيحتبى ، ولا يتكئ ، فلا يزال مُنْتصباً ، لا يتحرَّك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبْوته[1] ، ولا يحوِّل رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيْه ، حتى كأنه بناء مبنىٌّ أو صَخْرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه فى طِوال الأيام وفى قِصارها ، وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرِّك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفى السماطين[2] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المُكْثَ ، ثم تحول إلى مُؤْق[3] عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عَضِّه ونفاذ خُرْطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرْنَبته[4] أو يغضِّن وجهه أو يذبَّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جَفْنه الأعلى على جَفْنه الأسفل ، فلم ينهض ( الذباب ) فدعاه ذلك إلى أن وَالَى بين الإطباق والفتح ، فتنحىَّ ريثما سَكَنَ جفنه ، ثم عاد إلى مُؤْقه بأشد من مرَّته الأولى ، فغَمس خُرْطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى . فحرَّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحَّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدًّا من أن يذبَّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحَّى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطَرَف كُمِّه ، ثم ألجأه ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضره من أُمَنائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألَجّ من الخُنْفُساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبتْه نفسُه ، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمت أنى عند الناس من أزْمتِ

---

( ١ ) يحتبى : من الحبوة ، وهى أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

( ٢ ) السماطين ؛ مثنى سماط وهو الصف .

( ٣ ) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

( ٤ ) أرنبته : طرف أنفه .

الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : ( وإنْ يَسْلُبْهم الذُّبابُ شيئًا لا يَسْتنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ ) .

والأقصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه الجاحظ وقار القاضى عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة — التى لم يبلغها أحد — على نفسه وحركته . وهى سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكأنما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس مُحْتبيًا غير متكئ فى المسجد ، منتصبًا كأنه سارية أو عمود من أعمدته ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يَسْرة ، ولا يغيِّر وضعًا له فى جلسته ، حتى لكأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا فى يوم من أيام السنة ، بل فى جميع أيامها طوالها وقصارها ، وشىء منه لا يتحرك ، لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له فى سماطين وعظهم وعظًا بليغاً . وهذا هو الجزء الأول فى القصة أو الأقصوصة ، ويليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ إلحاح الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل فى العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه فى الوهن شيئاً فشيئاً ، والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصوراً أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف تحول من أنف القاضى إلى مؤقه ، والقاضى يستشعر وقاره صابراً صبراً عظيمًا على عَضِّ الذباب لمؤقه ونفاذ خرطومه فيه دون أن يُغْمض طرفه أو يغضّن وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابراً يوجعه الذباب ويحرقه ، حتى إذا نفد صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل فى إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحىّ الذباب قليلا ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتماله له أضعف ، فحرَّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضى حتى نفد صبره ، فذبَّ عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر ماردَّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه . حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بدًّا أن يذبَّ عن عينيه بطرف كمه . وعاوده مراراً ، وهو يتابع ذبَّه بطرف الكم . وننتقل مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأقصوصة وفيه يصوّر تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضى ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة . ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّح بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه ، وأنه لا يختلف فى ذلك عن بنى جنسه بشهادة الآية القرآنية الكريمة . والأقصوصة محبوكة حبكاً دقيقاً بما أودعها الجاحظ من دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بحذافيره نقلا واعياً ، أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شىء فى الرؤية الحسية ولا فى الرؤية النفسية .

ولون خامس فى كتابات الجاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نوادر ترويحاً عن نفس القارئ وتنشيطاً له ، على نحو ما صوّر ذلك بنفسه فيما أسلفنا من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغيّر ولا تبدّل صورتها اللفظية ، سواء جرَتْ على ألسنة البَدْو أو ألسنة العامّة ، يقول[1] :

« ومتى سمعتَ — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولّدين والبلديين خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلْحة من مُلَح الحُشْوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخيّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيّاً ، فإن ذلك يُفْسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدتْ له ، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » .

وطبّق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُرْوَى بألفاظها كما نَدّت من ألسنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً فى البداوة ظلت كما اجتُلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عُدّلت مُسخت وأصبحت مشوّهة الخلق ، وفارقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النوادر فى البخلاء بل كل الكتاب نوادر إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الفذة الفلسفية والكلامية ومحركاته من شعوبية وغير شعوبية وكثيراً من تقاليده ومطاعمه وملابسه ، فكل مافى المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقا بكل شياته وسماته . وله فى المعلمين كتاب ملأه بنوادرهم ، ونسوق له هذه النادرة التى صوّر فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم لملازمتهم الصّبْية ، قال :

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

« كنت ألّفت كتاباً فى نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يوماً قرية ، فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلّمت عليه فردّ علىّ أحسن ردّ ، ورحّب بى ، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوّى عزمى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيّدك . فدخلتْ وخرجتْ ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيباً ، فقلت : عظّم الله أجرك ( لقد كان لكم فى رسول الله أسْوة حسنة ) ، ( كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى والدك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى . فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس . فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت مَنْ لم تَرَ ؟ فقال : اعلمْ أنى كنت جالساً فى هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق ( النافذة ) إذ رأيت رجلا عليه بُرْدٌ ( ثوب ) وهو يقول :

يا أمَّ عمرٍو جزاكِ اللهُ مكرُمــةً ... رُدِّى علىَّ فؤادى أينما كانا
لا تأْخذين فؤادى تَلْعبين به ... فكيف يَلْعَبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ماقيل فيهاهذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مَرّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرٍو ... فلا رجَعتْ ولا رَجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست فى الدار ، فقلت : يا هذا : إنى كنت ألفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قوّيتَ عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله » .

والنادرة طريفة منتهى الطرافة ، والمعلم فيها يأخذ سمتاً جاداً ، يزينه فى أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شذا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان ألمّ به فى نوادر المعلمين وغفلتهم وحمقهم. ويصحبه فترة ، ويلاحظ أنه أغلق كُتّابه فيزوره فى داره ، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب ، فظن أنه فقد عزيزاً لديه ، وأخذ يسأله عنه ، وهو يجيب جاداً ، حتى عرف أنه فقد معشوقته . وكأنما أطلّ حمقه على الجاحظ ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها ، وتتوالى غفلته فى هذا الحب الأحمق الذى تهوى فيه كل قواعد المنطق ، وكأننا فى مسرح هزلى نفضى فيه إلى الضحك ، وكلما مضينا فى النادرة أغربنا فيه ، لا نتوقف ، وكأنما اختلّ توازننا ، أو كأنما نندفع فى انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغفلة المجسمة وما يُطْوَى فيها من حمق فظيع ، حمق يدفعنا إلى الضحك العريض . ولعل من الطريف أن الجاحظ كان يتندّر على كل شىء حتى على نفسه وشكله القبيح ، ويُرْوَى عنه أنه قال : « ما أخجلنى إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعملْ مثل هذا ، فبقيتُ مبهوتاً ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوّره ، فأتت بك لأصوره على صورتك » .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية فى كتاباته . ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت فى الجاحظ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة ، وما وصلها به من ذخائر الثقافات الأجنبية ، وما جسّدها فيه من طوابع عقلية ومن جِدّ وهزل ومن نقل لكل صور الحياة فى مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطُّرَف والنوادر ومن أسلوب ملىء بالنغم ، يجرى فيه دائماً الازدواج الذى يروع القارئ بجَرْسِه ، إذ يُمْتِع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تُصْغِى إليه ، كما يُمْتِع بمضامينه العقول والأفئدة .

## ٣

### ابن قتيبة (١)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ولد سنة ٢١٣ للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة ، أصله فارسى أو تركى من مرو بخراسان ، ومن ثم نُسب إليها ، فقيل المروزى ، اختلف فى صباه إلى الكتّاب ، فحفظ شيئًا من القرآن الكريم والحديث النبوى والأشعار وشدا شيئًا من الفقه والنحو والحساب ، ولم يكد يشبّ عن الطوق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث ، وعكف على المترجمات يقرأ فيها ويستوعب ، وخاصة ما تُرْجم عن الفارسية ، ولمع اسمه فى بيئة الفقهاء ، فتولّى القضاء بدِينَوَر ، ولذلك يقال له الدّينورى . وعاد إلى بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفى سنة ٢٧٦ للهجرة . وقد أكبّ على كتب الجاحظ يدرسها ويتمثلها ، مع أنهما كانا على طرفى نقيض ، فقد كان الجاحظ معتزليًا كما مرّ بنا ، وكان ابن قتيبة سُنِّيًا ، وله كتابان : مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديث ، وفيهما وخاصة فى الثانى يحمل على الجاحظ والمعتزلة حملات شعواء ، وهما منشوران . وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب فى الفقه وكتاب فى دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرهما كثيرة فى مختلف الميادين سقطت من يد الزمن. ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلا عن ترجمة للتوراة ، ويُعقب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام ، ثم أخبار موجزة عن العلماء فى كل فن وعن الفرس قبل الإسلام . وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب المَيْسر والقِداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف فى اللفظ والرد على الجَهْمية والمشبِّهة وهو منشور أيضًا بالقاهرة ونُشر

(١) انظر فى ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١ والأنساب للسمعانى الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠ وإنباه الرواة للقفطى ٢/١٤٣ ونزهة الألباء (نشر دار نهضة مصر) ص ٢٠٩ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٥ والديباج لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب ٢ / ١٦٩ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٩١ .

باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحولٌ عليه . ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى عصره ، وهو منشور مراراً . وله كتاب معانى الشعر الكبير . وألف طائفة من الكتب لتثقيف الكتّاب الناشئين ؛ منها كتابه « أدب الكاتب » ، الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يمدُّ الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة ، وأهم منه كتابه « عيون الأخبار » وهو يمد الكاتب فيه بكنوز الثقافات التى تُسْعفه فى مادة عمله .

وابن قتيبة يُعَدُّ أكبر مؤلف أدبى ظهر فى العصر بعد الجاحظ ، وهو سنى محافظ ولذلك يكون من المنطق أن تتضح محافظته فى آرائه النقدية ، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعات المجدّدة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة . ويتضح ذلك فى مقدمته الطويلة لكتابه « الشعر والشعراء » إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خصَّ بها قوماً دون قوم . وهى نظرة مُنْصفة ، ولكنه يعود فيقول : « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين . . . فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيَّد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يَرِدَ على المياه العِذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت الغرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشيح والحَنْوة[1] والعَرَارة » وهى لا شك نظرة محافظة تستمد من الجو السُنِّى فى العصر الذى حل محل جوّ الاعتزال منذ فاتحة عهد المتوكل . وكانت هذه النظرة تلتقى مع النظرة السابقة التى لا تضع فى موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحداثته ، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل ، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية ، بل كان ثانى اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة ، وعرضنا هناك لمصنَّفه : « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وكانت له وراء ذلك فى نفس الموضوع كتب مختلفة .

---

(١) الحنوة والعرارة : من أزهار البادية .

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يُدخل بقوة الثقافات الأجنبية: اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية، ويعمل على تكوين مزيج موحَّد منها جميعًا، بحيث لا يُشْغَلُ أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذى طال عليه الأمد منذ عهد المهدى حتى عصره. وحقًّا حاول ذلك الجاحظ من قبله، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شىء يشغله، حتى ليقول: «لا يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام متمكنًا فى الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة»[1] وأشار غير مرة إلى أن كتابه «أخذ من طُرَف الفلسفة». ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية فى العصر، فقد كان الفرس هم الذين يحملون عَلَمها ويبذلون قصارى جهدهم فى الدعوة لها مشيرين دائمًا إلى كتب الآداب الفارسية. فكان لا بد كى يُقْضَى على هذه النزعة الحادَّة من أن تلتقى — على يد كاتب عظيم — ثقافتها وكذلك الثقافة اليونانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية، وتدخل جميعها فى مجرى النهر العربى الإسلامى بحيث تتلاشى فيه نهائيًّا، ولا يصبح لها وجود مستقل، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة.

وهو ما نهض به ابن قتيبة فى أروع صورة، إذ مضى ينسِّق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة ومع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الهندية واليونانية، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألَّفت كتابه «عيون الأخبار»، وقد وزعه على عشرة كتب، أولها كتاب السلطان، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصُحْبته واختياره للعمال والقضاة والحجَّاب والكتَّاب، ويبدؤه بأحاديث نبوية، ثم يذكر بعض وصايا لشخصيات عربية فى الحكم وسياسة السلطان، ولا يلبث أن يقول: وقرأت فى كتاب من كتب الهند: «شر المال ما لا يُنْفَقُ منه، وشرُّ الإخوان الخاذل، وشرُّ السلطان من خافَه البرىء، وشرّ البلاد ما ليس فيه خِصْب ولا أمن... وخير سلطان مَنْ أشبه النَّسْر

(١) الحيوان ٢ / ١٤٣.
(٢) الحيوان ١ / ١١.

حوله الجيفُ لا مَنْ أشبه الجيفة حولها النسُورُ » ويذكر أقوالا لابن مسعود وعمر بن الخطاب ، ثم ينقل فصلاً طويلا من كتاب اليتيمة لابن المقفع وما يصوّر من الأدب الأخلاقى فى عهد ملوك الفرس الساسانيين ، ثم يقول : « وقرأت فى التاج ( وهو فى سيرة أنوشروان ) لبعض الملوك : هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شىء يَجِلّ ، وألباب السُّوَق مشغولة بأيسر الشىء » . ويعود إلى النقل عن بعض النابهين من العرب ، ثم يقول : « وقرأتُ فى بعض كتب العجم كتاباً لأرْدَشير بن بابك إلى الرعية ، وينقل الكتاب جميعه ، ويعقب عليه بكتاب من أرسطاطاليس إلى الإسكندر وفيه : « املك الرعيةَ بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك ، هو أدوم بقاءً منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان ، فتخطّاها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرتْ أن تقول قدرتْ على أن تفعل ، فاجْهَدْ ألا تقول تسلم من أن تفعل » . ويَتْلو ذلك بقوله : « وقرأت فى كتاب الآيين ( فى أنظمة الملك والدولة الساسانية ) أن بعض ملوك العجم قال فى خطبة له : « إنى إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر » ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج فى رعيته ، ثم يقول : « وقرأت فى كتاب التاج : قال أبْرَويز لابنه شِيرويه وهو فى حبسه : « لا توسعنّ على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيقنّ عليهم فيضجّوا منك ، أعْطِهِم عطاء قَصْدا ، وامنعْهم منعاً جميلا ، ووسِّعْ عليهم فى الرجاء ، ولا توسِّع عليهم فى العطاء » . ويَرْوِى عن عمر بن الخطاب « إن للناس نَفْرَةً عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، أقِمِ الحدود ولو ساعةً من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا فآثِرْ نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى . . . وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة بهيمة مرّت بواد خِصْب فلم يكن لها هَمٌّ إلا السِّمن ، وإنما حتفها فى السِّمن » . ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير فى الرعية ، ولا يلبث أن يقول : وفى كتاب من كتب العجم أن أرْدَشير قال لابنه : « يا بُنَىَّ إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أسٌّ والملك حارس ، وما لم يكن له أسٌّ فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع » ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح

أن تكون فى السلطان . ويتحدث عن اختيار العمال ويختم حديثه بقوله : قرأت فى كتاب للهند « السلطان الحازم ربما أحبَّ الرجل فأقصاه واطَّرحه مخافة ضرّه ، فعلَ الذى تلسع الحية إصبعه ، فيقطعها لئلا ينتشر سُمّها فى جسده ، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغَناء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه» . ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونه ، ويقول : « قرأت فى كتاب للهند : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخِطار ، وإنما تُشَبَّه بالجبل الوَعْر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية ، فالارتقاءُ إليه شديد ، والمقام فيه أشد . . . ولا خير فى الشىء الذى فى سلامته مال وجاه ، وفى نكبته الجائحةُ والتلف» . وينقل عن بعض العرب ورجالاتهم وعن آداب ابن المقنع وعن بعض النساك والمعتزلة والوعّاظ وعن بعض كتبه الى كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبْرويز فى بعض ما كتب به إلى ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب ، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامى وبشار وغيرهما ، ويعرض لخيانات العُمّال ، وينقل من كتاب التاج : أن أبْرويز قال لصاحب بيت المال : « إنى لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحدك على حفظ ألف ألف درهم ، لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتَعْمُرُ به أمانتك ، فإنك إن خُنْتَ قليلا خنت كثيراً » . ويُكثر فى فصل القضاء المعقود فى هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام ، ويروى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، وهو دستور عظيم فى عدالة القضاء ونزاهته . وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم ، وفيها يُكثر من النقل عن العرب نثراً وشعراً ، ويعود فى الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس .

والكتاب الثانى كتاب الحرب ، وفيه يتكلم عن آدابها ومكايدها وأوقاتها وحِيَلها وعُدَدها وسلاحها ، ويبدؤه بحديث عن الرسول عليه السلام وببعض وصايا أبى بكر وعمر للجيوش وقُوّادها عند عقد الألوية ، ويَذكُر بعض ما قرأ فى كتب العجم والهند ، ومما قرأه فى الأخيرة : « الحازم يحذر عدوه فى كل حال ، يحذر المواثبة إن قرب ، والغارة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولّى ، والمكر إن رآه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد بُدّاً ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة فى

غيره من المال ». ويذكر بعض حِيَل الفرس والعرب فى الحرب ، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين ، ويُفيض فى الحديث عن الشجعان وإنشاد الشعر الحماسى .

والكتاب الثالث كتاب السؤدد ، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه ، ويعرض لجوانب كثيرة من الشرف والأخلاق الرفيعة ، ويفتح فيه فصلاً للمزاح والرخصة فيه ، ويدعو إلى التوسط فى الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق ، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسطاطاليس . ويُفْرِد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية ، وفيها يقول : وقرأت فى كتاب للهند : « قلما يُسْنَع القلب من القول إذا تردّد عليه ، فإن الماء ألين من القول ، والحجر أصلب من القلب ، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثّر فيه ، وقد تُقْطَعُ الشجرة بالفئوس فتَنْبُتُ ، ويُقْطَعُ اللحم بالسيوف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب فى الجوف فتُنْزَعُ ، والقول إذا وصل إلى القلب لم يُنْزَع ، ولكل حريق مطفئ : للنار الماءُ ، وللسم الدواءُ ، وللحزن الصبر ، وللعشق الفُرْقة ، ونار الحِقْد لا تخبو » . ويذكر أن واشيًا وَشَى برجل إلى الإسكندر فقال له : « أتحب أن أقبل منك ما قلتَ فيه على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال فكُفَّ عن الشرِّ يكفَّ عنك الشر » ، وينقل فى هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً ، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً بالجاحظ ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر ، كما يعرض للنبات . ويعقد الكتاب الخامس للعلم والبيان ، ويستهله بحديث عن الرسول ويقول : فى كتاب للهند : العالم إذا اغترب فمعه من علمه كاف كالأسد معه قوته التى يعيش بها حيث توجَّه ، ويذكر عن بُزُرْجِمِهْر أنه قيل له : بِمَ أدركتَ ما أدركتَ من العلم ؟ فقال ببكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار » ويذكر عن أفلاطون أنه قال : « لولا أن فى قول لا أعلم سببًا لأنى أعلم لقلت إنى أعلم » . ويَرْوى بعض كلمات للمسيح عليه السلام ، ويفتح فصولا للقرآن الكريم والحديث الشريف والفِرَق والأهواء فى الدين ، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر ، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون .

والكتاب السادس كتاب الزهد ، وفيه تبرز بجانب مواعظ كبار النسّاك والوعّاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها ، بل أيضًا ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل ، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحى الله عزّ وجلّ إلى أنبيائه . وينقل من التوراة ومن الإنجيل ، من ذلك قوله : « قرأت فى الإنجيل : لا تجعلوا كنوزكم فى الأرض حيث يُفْسِدُها السوسُ والدود وحيث يَنْقب السرّاق ولكن اجعلوا كنوزكم فى السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم » ويذكر أن رجلا من الحواريين قال للمسيح : أتأذن لى أن أدفن أبى ؟ فقال له : دع المرتى يدفنون موتاهم . ويذكر له دعاء طويلا حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه ، كما يذكر دعاءً لداود وتحميداً طويلا ودعاء ليوسف ، ويَرْوِى عن المسيح أنه قال : حبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة ، والمال فيها داء ، قيل : ما داؤه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر ، قيل وإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله . وبذلك يكون ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين . والصلة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد فى البيان والتبيين للجاحظ واضحة .

والكتاب السابع كتاب الإخوان ، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغى أن يكون بينهم من الوشائج والصلات والاشتراك فى السرّاء والضرّاء . ، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم ، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين . والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتنجزها ، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بُزرْجمِهْر : « إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تَفْنَى ، وإذا أدبرتْ عنك فأنفق فإنها لا تبقى » . والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب فى مآكلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأوانى الأكل والحِمْية وشرب الدواء والتُّخَمة والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول . وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية ، ويصرّح بأنه ينقل فى هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء واضح فيه ، ويذكر فى الحِمْية عن الطبيب اليونانى جالينوس أنه قيل له : إنك تُقِلُّ من الطعام ؟ قال : غرضى من

الطعام أن آكل لأحيا وغرض غيرى من الطعام أن يحييا ليأكل. وبالمثل ينقل عن أبقراط اليونانى نقولا ، كما ينقل عن أطباء العصر العباسى مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآيين الأعجمى . والكتاب العاشر كتاب النساء ،وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يُقْبَلُ منهن وما يُكْرَهُ والجمال والقبح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهن والجوارى والقيان ومساوئ النساء، ويحكى هنا قصة حصار أردشير لمدينة الحَضْر الأسطورية التى يقال إنها كانت قائمة فى الزمن القديم بين دجلة والفرات ، وكيف أن فتاة ملك الحضر رأته فعشقته ، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدله على موضع يفتتح منه المدينة إن هو وعدها الاقتران بها ، ووعدها ، فدلته على الموضع ، ودخل المدينة هو وجنوده .

ولعل فيما قلمنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وكذلك ثقافة أهل الكتاب ، فكل الثقافات الأجنبية والعربية من مدنية ودينية استحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التى نقرؤها فى عيون الأخبار . وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خَفَتَ صوت الشعوبية ، فإن الكنوز التى كانت تباهى بها تحولتْ إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لُبِّه ، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها ، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشقُّ لنفسها جداول تجرى فيها وحدها ، فقد صَبَّت فى نهر العروبة الكبير وذابت فيه ، أذابها ابن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر ، وأكبر الدلالة على ذلك لاتضاؤل صوت الشعوبية تضاؤلا شديداً مع السنين فقط ، بل أيضاً أنا لانعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية ، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدى كتاب عيون الأخبار ، وبعد أن أصبح المصدر الأساسى لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيده الأدب العربى منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية . فكل ذلك قد أصبح تحت أيدى العرب وأبصارهم ، ولم يعودوا فى حاجة إلى مزيد منه ، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دوَّن الفردوسى فى الشاهنامة من شعر قصصى ولا بما كتب حافظ الشيرازى وغيره من شعر صوفى. وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعوبية والزندقة معاً ، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد

فحسب، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجرى، مصوّرين بذلك بواعثهم وحقائقهم النفسية .

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب فى أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوبَ ابن قتيبة فيه ، فإن كل هذه المواد الثقافية التى نسقّها سبكها فى أسلوب أدبى رائع ، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحيانًا ، وأحيانًا يسترسل دون محاولة الازدواج، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملاءمة بينها بحيث لا تجد فيها أى نشاز ولا أى اضطراب أو انحراف ، فقد كانت اللغة مرنة فى يده ، وكان لا يتأبّى عليه أى لفظ ، ولا تستعصى عليه أى كلمة . وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجرى فيه من استواء صنّف كتابه عيون الأخبار جميعه ، بحيث غدا كأنه مصبوب فى قوالب متماثلة ، قوالب تستريح لها الأذن ، وتجد فيها القلوب والعقول متاعًا لا ينفد ، واقرأ سطوره الأولى فى المقدمة ، فإنها تطرد على هذا المنوال :

« الحمد لله الذى يُعجز بلاؤه صفةَ الواصفين ، وتفوت آلاؤه عددَ العادّين ، وتسع رحمته ذنوبَ المسرفين ، والحمد لله الذى لا تُحْجب عنه دعوة ، ولا تخيب لديه طِلْبة ، ولا يضل عنده سَعْى ، الذى رضى عن عظيم النعم بقليل الشكر ، وغفر بِعَقْد الندم كبير الذنوب ، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين . والحمد لله الذى ابتعث فينا البشير النذير ، السراج المنير ، هاديًا إلى رضاه وداعيًا إلى محبّته ، ودالاً على سبيل جنّته ، ففتح لنا باب رحمته ، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله فى كل نعمة أنْعَمَ بها حقًا ، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة ، فزكاة المال الصدقة ، وزكاة الشرف التواضع ، وزكاة الجاه بَذْله ، وزكاة العلم نَشْرُه ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحمدها مَغَبّةً ، وأحمدها مَغَبّةً ما تُعلَّم وعُلِّم لله وأريد به وجه الله تعالى » .

وهذه القطعة فى مستهلّ الكتاب تصور ضربًا من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ ، فالجاحظ يعمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة ، وقد يجرى السجع على لسانه فى غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة . والعبارات الأخيرة التى ردّد فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة ، وتعقّبَ فيها الكلمة الأخيرة وردّدها

كما فى كلمة « أنفعها » و « أحمدها » هذا الأسلوب بعينه نجده عند الجاحظ ، وكأن ابن قتيبة تمثّل أسلوبه بجميع خصائصه ونمضى معه فى المقدمة ، فنراه يقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغْتنِل التأدُّب تبصرةً ، ولأهل العلم تذكرةً ، ولسائس الناس ومَسوسهم مؤدّبًا ، وللملوك مُسْتَراحًا ، وصنّفْتها أبوابًا ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظُها ، وعلى الناشد طَلَبُها ، وهى لَقاح عقول العلماء ، ونَتاج أفكار الحكماء ، وزُبْدة المَخْض ، وحِلْيَةُ الأدب ، وثمار طول النظر ، والمتخيَّر من كلام البلغاء ، وفِطن الشعراء ، وسِيَرُ الملوك ، وآثار السلف » .

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذى كتب هذا الكلام ، وسُئلنا عن صاحبه لأجبنا توًّا الجاحظ ، إذ نشعر كأنما فَصَلَ من أسلوبه بخواصه من الموازنات والمعادلات بين العبارات ، بحيث تتقابل الكلمات فى صفوف ، وكل كلمة كأنما تمسك بمثيلتها فى العبارة التالية ، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة ، فهى على وتيرتها ومن نفس جنسها ونوعها ، وكان هذا يُحْدث تماسكًا شديداً فى أسلوب الجاحظ ، لولا ما يداخله أحيانًا من استطراد . أما عند ابن قتيبة فلا استطراد ولا خروج من دائرة الفكرة التى يعالجها ، وكتابته من هذه الناحية مرتّبة مبوّبة فى أدقّ نَسَق . ويكفى أن ننظر فى فهرس عيون الأخبار فسنرى الكتاب من كتبه العشرة يُفْتَحُ ، ولكل كتاب فصوله المترابطة معه ، وكأنها حلقات فى سلسلة متتابعة وليس فى داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام ، بل لكأنما الكتاب خيط ممتدّ أحكمت فصوله ونُسِّقت مواده تنسيقًا دقيقًا . وابن قتيبة يخطو بالتأليف الأدبى من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة ، إذ لا يسمح لأى فصل داخلى فى كتاب فضلا عن الكتاب نفسه بأى استطراد يُخلْخل الكلام أو يُفْقده سياقه . ولكن إذا كان قد تفوّق على الجاحظ من حيث نَسَق التأليف فإن الجاحظ يتفوق عليه فى وَصْله الأدب بمجتمعه ، على نحو ما صوّرنا من صنيعه فى هذا الجانب . وحقًّا نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له ، ولكنه لم يَحْك أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصرهم على نحو ما حكى الجاحظ ، ولا حكى أخبار

طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة . وهو لذلك لا يُعَدُّ كاتبًا واقعيًّا على نحو ما يُعَدُّ الجاحظ ، وإن كان قد حاول أحيانًا أن يقتفى أثره . ومَرَّ بنا أنه بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أى حرج فى أى شىء يخجل منه المتزمتون ، حتى العَوْرات كان لا يرى فى ذكرها أى بأس ما دام الكلام يستلزم ذكرها ، ويتابعه ابن قتيبة فى تقديمه لعيون الأخبار قائلا : « إنما مثلُ هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مَذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، وإذا مَرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عَوْرة أو وصف فاحشة فلا يحملنَّك الخشوع أو التخاشع على أن تصعِّر خدَّك ، وتُعْرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تُؤْثم ، وإنما المَأْثَم فى شَتْم الأعراض وقول الزور والكذب وأكْل لحوم الناس بالغَيْب » . ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ فى صراحته ، إذ كان فى حقيقته محافظاً متزمتاً لا يستطيع أن يترك لنفسه — مثل الجاحظ — العنان فى الصراحة دون أى مواربة .

ومرَّ بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجد بالهزل خاصة قوية من خصائص كتابته ، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنَّة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه فى مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابته ، يقول : « ولم أُخْلِه من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة . . لأروِّح بذلك عن القارئ من كَدِّ الجِدِّ وإتعاب الحق ، فإن الأذن مَجَّاجَةٌ ، وللنفس حَمْضة ، والمَزْح إذا كان حقًّا أو مقاربًا ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبته مُشاكلا ، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما رُوِىَ عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مرَّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به » .

وإذا انتهينا — كما يقول ابن قتيبة — إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السؤدد لاحظنا توًّا أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ ، فمنها كثير لا يثير ابتسامًا ، وما يثير الابتسام قليل جدًّا ، ويكفى أن يقول إنها مما رُوِىَ عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدَّمًا أنها نوادر وفكاهات يمسح عليها الوقار وأنه يَنْدر أن ترتسم معها ابتسامة على الشفاه . ونسوق منها هذه النوادر عن الشَّعْبِىِّ ( من علماء الكوفة ) لتُعْرَفَ طوابعها ومدى ما فيها من المزاح :

« دخل رجل على الشعبي ومعه فى البيت امرأة ، فقال لهما : أيكما الشعبي ، فأجابه الشعبي : هذه . وسأل سائل الشعبي عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه : نحن نرضى منه بالكفاف . ودخل على الأعمش زميله يعوده فى مرض ، ونظر من حواله إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط ، ثم قال له : أما أنت فتُعرَف فى منزلك أنك لست من أهل القَرْيتين ( مكة والطائف ) عظيما » .

وأين هذه النوادر ، من نادرة المعلم الأحمق التى رويناها آنفـًا ، والتى مَثّل فيها الجاحظ حُمْقه تمثيلا هزليـًّا مضحكـًا ؟ . ولا ريب فى أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين ، فالجاحظ أديب فكه بطبعه متحرر من كل قيد ، يُضْحك وتستغرق فى الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتستردّ نفسك إلا بعد ضحك عريض ، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر ، ويغلب عليه استشعار الجد ، وكأنه إذا هَزَلَ أو تندَّر خرج عن طبعه ، أو قل كأنه إنما كان يريد أن يتشبه بالجاحظ . ومن بقية هذا التشبُّه عنده فى باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم فى تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكى النوادر العامية بلفظها وبما فيها من لحن ، ومرَّ بنا كلام الجاحظ فى هذا الموضوع وأنه ينبغى أن تظل النادرة العامية بصيغتها ولحْنها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة إذا انقلبت ألفاظها من العامية إلى الفصحى وتبدَّلتْ صورتها الفكهة ، ويقول ابن قتيبة محتجـًّا لذلك : « اللَّحْنُ إن مَرَّ بك فى حديث من النوادر فلا يذهبنَّ عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سَلَب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها ، وسأمثل لك مثالا ، قيل لمُزَبِّد المدينى ( المضحك ) — وقد أكل طعامـًا كظَّه ( أتخمه ) — قِى ( قِيءْ ) فقال : ما أقى ، أقى نَقـًا ( مخـًّا ) ولحم جَدْى ! مَرَتى طالق لو وجدت هذا قيـًّا لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ، ولاستبشعها سامعها » . والنادرة نفسها التى تمثَّل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدلُّ — هى وما سبقها بوضوح — على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ .

والجاحظ فى الواقع قمة بعيدة المنال فى الأدب العربى كله ، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه ، فقد كان فريداً فى عصره والعصور السابقة جميعها ، ويكفى ابن قتيبة مجداً أدبيا أسلوبه الواضح الناصع الذى وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد

أصحاب الشعوبية بما سوَّى للعربية فى عيون الأخبار من هذا الأدب العربى الرفيع الذى وَسِعَ مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة .

## ٤

### سعيد بن حميد [1]

أبوه حُمَيْد بن سعيد فارسى الأصل ، كان من أهل النباهة فى بغداد ووَجْهًا من وجوه المعتزلة وكان يُحْسن نظم الشعر ، ولا نعرف متى وُلد له سعيد ، ويبدو أنه عُنى به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره ، فألحقه بكُتَّاب حفظ فيه شيئًا من القرآن والفقه والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب ، حتى إذا خطا خطوات فى العقد الثانى من عمره دفعه إلى حلقات الدرس فى المساجد ، ويُرْوى أنه عُنى خاصة بأن يلحقه بحلقة ابن الأعرابى المتوفَّى سنة ٢٣١ وأنه سمع منه أرجوزة فى نحو عشرين بيتًا وحفظها بمجرد سماعها ، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته . ولم يكتف سعيد بحلقة هذا العالم اللغوى الكبير ، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف ، مُكِبًّا عليها ناهلا منها متمثلا لما يقدَّم فيها من غذاء أدبى وفكرى ، مما جعل المسعودى يقول عنه : «كان سعيد حافظًا لما يُسْتَحسن من الأخبار ويستجاد من الأشعار متصرفًا فى فنون العلم ، مُمْتِعًا إذا حدَّث ، مُفِيداً إذا جوالس» . ولعل ذلك ما جعل فضلا الشاعرة تُعْجَبُ به ، وتعقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة ، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية ، على نحو ما مرَّ بنا فى حديثنا عن فضل . وكان قد ملأه الطموح بالنجاح فى سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها . ولا ريب فى أن حلاوة محضره وعذوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تشرئب أعناقهم إلى صحبته ، وكانت فيه دُعابة تجعل مجلسه خفيف الروح ، مما جعل أبا على البصير وأبا العَيْناء نديمى المتوكل يألفانه ويختلفان إلى مجالسه ، وتدور بينهما وبينه مداعبات ومعاتبات ومكاتبات ، كما قال الرواة . ويبدو

---

(١) انظر فى ترجمة سعيد ورسائله الفهرست ص ١٨٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ٢ ومروج الذهب ٤ / ٦١ وابن خلكان وكتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ليونس أحمد السامرائى (طبع بغداد) وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت .

أنه كان ينتظم بين كُتَّاب الدواوين لعهد المتوكل ، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك ، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأى ما اشتهر به من تعصبه على آل على بن أبى طالب تعصبًا شديداً حتى ليقول ابن المعتز : « كان سعيد من أشد الناس نَصْبًا ( عداء ) لعلى وانحرافًا عن آل الرسول عليه السلام »[1] ويقول المسعودى : «كان يتنصَّب ويظهر التسنن والانحراف عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وعن الطاهرين من ولده » . ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين فى كربلاء وانحرافه عن على وآله ، وكأن سعيداً اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه . على كل حال نظن فى هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معًا أنه كان يعمل فى ظله ، وأنه استحال بوقًا من أبواقه . ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف العجم من العرب ويُعْرَفُ بالتَّسْوِيَةِ ، والكتاب لم يصلنا ، ولا ندرى هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافًا شديداً أو انحرافًا خفيفًا ، على أن فى كلمة ابن النديم أن الكتاب يُعْرَفُ بالتسوية ما قد يشير إلى أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم ، والتسوية كما مرَّ بنا فى هذا الكتاب وكتاب العصر العباسى الأول لا تدخل فى العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية . وفى أشعاره ما يدل على أنه كان معتزليًا مثل أبيه على نحو ما نرى فى قوله[2] :

قد قلتُ بالعدل ولكننى عدلتُ فى الحبِّ عن العَدْلِ
فقلتُ بالإجبار مستغفرًا لله من قولى ومن فعلى

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة ، والتى تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة ، حتى يكون ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يداه ، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شىء بقضاء وقدَر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير .

ولعل فى ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفًا ثقافة واسعة ، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية ، وهيَّأ له ذلك أن يصبح من كتَّاب الدواوين

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ .

(٢) كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص ١٤١ .

مبكراً . وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها تَرْمُقه وتلاحظه ، إذ كان شاعراً بارعاً وكاتباً نابغاً .

وكانت أولُ حادثة لمع فيها اسمه البيعةَ للمنتصر بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧ ، فقد ذكر أن أحمد بن الخصيب وزير المنتصر قال له : ويلك يا سعيد ! أمعك كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة ؟ قلت : نعم وكلمات ، وعملتُ كتابَ البَيْعة . وهو كتاب طويل استهلَّه بقوله[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طَوْع واعتقاد ورضاً ، ورغبة بإخلاص من سرائركم ، وانشراح من صدوركم ، وصدق من نِيَّاتكم لا مُكْرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مقرّين عالمين بما فى هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه ، وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله واجتماع الكلمة ، ولَمِّ الشَّعَث ، وسكون الدَّهماء ، وأمْن العواقب ، وعزّ الأولياء ، وقَمْع الملحدين . . . لا تشكّون ولا تُدْهنون ( تمالئون ) ولا تميلون ، ولا ترتابون ، وعلى السمع له ، والطاعة والمسالمة ، والنصْرة والوفاء والاستقامة والنصيحة فى السر والعلانية ، والخُفوف والوقوف عند كل ما يأمر به » .

وأكبر الظن أن صوت سعيد اتضح فى هذه السطور القليلة ، فهو يُعْنَى أشد العناية باختيار لفظه ، وهو لا يطيل عباراته ، بل يجعلها قصيرة ، حتى لتصبح كلمة مثل : « طوع واعتقاد ورضاً » ، ومثل « اجتماع الكلمة ، ولَمِّ الشعث ، وسكون الدهماء ، وأمن العواقب ، وعز الأولياء ، وقمع الملحدين » فالكلمات تتعاقب ، جزلة حقا ، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاه ، إذ لا تلبث أن تحملها حتى ترسلها . ويظل كاتباً لأحمد بن الخصيب طوال خلافة المنتصر ، حتى إذا ولى الخلافة بعده المستعينُ لسنة ٢٤٨ عزل ابنَ الخصيب من الوزارة ، واستوزر مكانه أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل الجرجرائى ، فجعل رياسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد[2] ، وبذلك أصبح الكاتبَ الأول فى الدولة الذى تَصْدر عنه جميع رسائلها الديوانية ، ومما كتبه حينئذ رسالةٌ خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ، وكان المستعين قد

(١) انظر الطبرى ٩ / ٢٣٥ وما بعدها .
(٢) طبرى ٩ / ٢٦٤ .

نزلها سنة ٢٥١ بُعْداً عن سامرّاء مدينة الترك وبَغْيهم ، فبايعوا المعتز ،ونازلوا ابن طاهر ببغداد فهزمهم ، حينئذ نراه يأمر سعيد بن حميد بكتابة رسالة تذكر الوقعة حتى تُقَرَأ على أهل بغداد فى مسجد جامعها ، وهى رسالة طويلة طولا شديداً نقتطف منها بعض الفقر التالية :

« ساروا نحو مدينة السلام ( بغداد ) معلنين للبَغْى والاقتدار ، مظهرين للغَىّ والإصرار ، فتأنّاهم أمير المؤمنين ( المستعين ) وفسح لهم فى النَّظِرة ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد . . . وأن يبيّن لهم ما سلف من بلائه عندهم من أسْنَى المواهب ، وأرفع الرَّغائب ، والاختصاص بِسَنىّ المراتب ، والتقدم فى المحافل ، فأبوا إلا تماديًا ونفاراً ، وتمسكًا بالغَىّ وإصراراً . . . وقابلوا الموعظة بالإصرار على الذنب ، وعارضوا التبصير بالاستبصار فى الباطل . . . وصَدَقَتْهُمْ أولياء الله (جنود المستعين وابن طاهر ) فى لقائهم بقلوب مستجمعة لهم ، وعلم بأن الله لا يُخْلف وعده فيهم ، فجالت الخيل بهم جولةً ، وعاودتْ كرَّةً بعد كرَّة ، طعنًا بالرماح ، وضربًا بالسيوف ، ورَشْقًا بالسهام ، فلما مسَّهم ألم جراحها وكَلَمَتْهم (جرحتهم ) الحرب بأنيابها ، ودارتْ عليهم رَحَاها ، وصمد لهم أبناؤها ظَمَأً إلى دمائهم ، ولَّوا أدبارهم ، ومنح الله أكتافهم ، وأوقع بأسَه بهم ، فقُتلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصّنوا من عقابه بإنابة . . . فمن قتيلٍ غُودرتْ جثته بمصرعه ، ونُقلت هامته إلى مصيرٍ فيه معتبَرٌ لغيره ، ومن لاجىءٍ من السيف إلى الغَرَق لم يجرْه الله من حذاره ، ومن أسير مصفود ( موثق بالأغلال ) يقاد إلى دار أولياء الله وحزبه ، ومن هارب بِحُشاشة نفسه . . . فرَقًا أربعًا تجمعها النار ، ويشملها عاجل النكال عِظةً ومعتبراً لأولى الأبصار » .

وواضحٌ تقطيع العبارات وتقابل الكلم فى الرسالة ، وكأننا بإزاء حائك ، يقيس ثيابًا متماثلة مقدّرة على معانيها . وقد يتكامل التقطيع ، فيظهر السجع ، ولكنه ليس سجعًا متكلّفًا ، فليس مردّه إلى محاولة صَنْعة ، وإنما مرده إلى دقة التقطيع ، حتى لتأخذ العبارات شكل سجعات متوالية . وما نزال نتنقل بين تقاطيع طريفة ، حتى نصل مع سعيد إلى تقسيم الجيش الذى دارت عليه الدوائر أقسامًا أربعة :

فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يلوى .

ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدى رسائله الديوانية ، فمن ذلك تحميد كتب به فى فتح نهض به القائد التركى وصيف ، يستهله بقوله [1] :

« أما بعد فالحمد لله الحميد المجيد ، الفعّال لما يريد ، الذى خلق الخلق بقدرته وأمضاه على مشيئته ، ودبّره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته ، التى تدعو العقول إلى معرفته ، وتشهد لذوى الألباب بربوبيته ، وتدلّ على وحدانيته ، لم يكن له شريك فى ملكه فينازعه ، ولا مُعين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ، فليس يتصرّف عباده فى حال إلا كانت دليلا عليه ، ولا تقع الأبصار على شىء إلا كان شاهداً له بما رسم فيه من آثار صُنْعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إعذاراً بحجّته ، وتطولا بنعمته ، وهداية إلى حقّه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته . . . والحمد لله العزيز القهّار ، الملك الجبّار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهّره ، وأعلاه وأظهره ، فجعله حُجّة أهله على مَنْ شاقّهم ( خالفهم ) ووسيلتهم إلى النصر على مَنْ عَنَدَ ( مال ) فى حقهم ، وابتغى غير سبيلهم » .

والسجع كثير فى هذا التحميد ، وهو دليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع فى العبارات ، وإحساس الكتاب بأنه لا بأس من استكمال هذه التقاطيع ، ولكن لا على أساس الجور على المعانى ، وإنما على أساس الوفاء بها . وسعيد يستوفى فى أول تحميده صفات الله جلّ شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمة فى تدبير الكون ، مما يشهد بوحدانيته . ونحس أثر قراءته لمباحث المتكلمين حين يلمّ بالوحدانية إذ يقول : لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان ، وأيضاً فإن هذا يؤول إلى أن يكون هناك آلهة تُعينه فى الخلق وتساعده ، ولو صحّ ذلك لأصبح الله محتاجاً إليها وانتفت عنه ألوهيته ، إذ يمسه الضعف والعجز من بعض الوجوه ، ويعرض حجة على ربوبيته التأمل فى خلق الإنسان وفى نظام الكون مما يهدى إلى طريق الرّشاد .

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التى كان يكتبها فى أثناء عمله بالدواوين رسائل إخوانية كثيرة ، منها تهنئات بعيد النّيْروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى

---

( ١ ) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٥ .

مجالس الأنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات ، ونعم طائفة منها بادئين بتهنئاته فى عيد النيروز ، فمن ذلك رسالة إلى أبى صالح يزداد وزير المستعين[1] :

« النفسُ لك ، والمالُ منك ، والرجاءُ موقوفٌ عليك ، والأمرُ مصروفٌ إليك ، فما عسانا أن نُهْدى لك فى هذا اليوم ، وهو يوم سَهَّلت فيه العادة ، سبيل الهدايا للسادة ، وكرهتُ أن نخليه من سُنَّته فنكون من المقصّرين ، أو نَدَّعى أن فى وسعنا ما يَفِى بحقك علينا فنكون من الكاذبين ، فاقتصرنا على هدية تقضى بعض الحق ، وتقوم عندك مقام أجمل البِرّ ، وهى الثناء الجميل ، والدعاء الحسن ، لا زلتَ أيها الأمير دائم السرور والغبطة فى أتم أحوال العافية ، وأعلى منازل الكرامة ، تمر بك الأعياد الصالحة ، والأيام المفرحة ، فتُخْلِقها وأنت جديد ، وتستقبل أمثالها ، فتلقاك ببهائها وجمالها . وقد بعثت الرسول بالسكّر لطيبه وحلاوته ، والسَّفرجل لفأله وبركته ، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ، ولا زلت حُلْوَ المذاق على أوليائك ، مُرًّا على أعدائك ، متقدّمًا عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفنيتهم ( ساحاتهم ) بمثلك » .

والرسالة تحمل أسلوبَ سعيد وما يميزه من التقطيعات المتوالية والمعانى المتقابلة ، فالنفس يقابلها المال ، والرجاء يقابله الأمر . ويسقط السجع سقوطًا طبيعيًّا ، كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة . ويمسح على ذلك لطف الحضارة ، وما يمتاز به أهلها من دقة الحِسّ ورهافة الذوق ، على نحو ما يتضح فى المعانى التى تحملها الهدية ، فالسكر رمز للحلاوة والسفرجل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير فى عِزّه . ويكتب برسالة مماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال[2] :

« أيها السيد الشريف ! عشتَ أطول الأعمار بزيادة من العمر ، موصولة بقرائنها من الشكر ، لا ينقضى حق نعمة ، حتى تجدّد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصّراً عما بعده ، مُوفياً على ما قبله . إنى تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة ، فالتمست التأسى بهم فى الإهداء ، وإنى إن

---

(١) العقد الفريد ٦ / ٢٨٢ وديوان المعانى ١ / ٩٥ .

(٢) عيون الأخبار ٣ / ٣٩ ، والعقد الفريد ٦ / ٢٨١ وديوان المعانى ١ / ٩٤ .

أهديت نفسى فهى ملك لك، لا حظّ فيها لغيرك ، وإن رميتُ بطرفى إلى كرائم مالى وجدتها منك . . . وفزعتُ إلى مودتى فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة فرأيت إن أنا جعلتها هديتى لم أجدّد لهذا اليوم الجديد بِرًّا ولا لَطَفًا ( هدية ) ولم أقِسْ منزلةً من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق ، والنعمة زائدةً على ما تبلغه الطاقة ، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك ، والإقرار بما يجب لك بِرًّا أتوصّل به » .

والرسالة تحمل فى جوهرها معانى الرسالة السابقة ، وفيها نفس التلطف ، وإن كان قد ازداد رقة فى الدعاء وفى التعبير عن الاعتذار بالتقصير ، فليس هناك ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قدّمهما من قبل ، ولم يبق فى طاقته سوى الحمد والثناء والشكر الذى لا يماثله شكر ، وتتوافر التقطيعات فى الرسالة ويظهر السجع أحيانًا فى خفة وبدون أى تكلف لجهد أو عناء . ويكتب لصديق عُزل عن عمله ، مسليًا له[1] :

« حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام إليك إحسانه ، إن سرورى بِصَرْفك أكثرُ من سرور أهل عملك بما خُصُّوا به من ولايتك . وقد كنت — أعزّك الله — فيما يُرْبِأ بك عنه بما أنت عليه فى قدرك واستئهالك ، ولكنا رجونا أن يكون سببًا لك إلى ما تستحق ، فطِبْنا نَفْسًا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلّمك منه ، ونسأله تمام نعمه علينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشَفْع ( قَرْن ) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرف المراتب ، ثم خصّك الله بجميل الصُّنْع ، وبلّغك غاية المؤملين . إن من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُخَصُّ به فى عمله وولايته السلامةَ من بوائق ( دواهى ) الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ، وقد خصّك الله منها — بِمَنِّه وطَوْله ( إنعامه ) ما نرجو أن يكون سببًا لك إلى نيل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعك ( إلهامك ) شكر ما مَنَّ به عليك ، وتبليغك غاية أملك فى جميع أمورك ، برحمته وفضله » .

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذ يعكس سعيدٌ العزاءَ عن العمل، وجعله تهنئة

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٧ .

خليقةً بأن تُنْصب لها أعلام السرور . ومضى يصوّر سروره وأنه يزيد على سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم . ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفسًا ، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة . ثم أخذ يحمد له السلامة من هذا العمل ويعدُّ ذلك نعمة ليس فوقها نعمة ، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها أصدق الشكر ، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله . وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التى كانت تدور فى المجالس ، والتى كانت تعرض محاسن الشىء ومساوئه . فقد يكون حسنًا وينقلب سيئًا ، وقد يكون سيئًا وينقلب حسنًا ، ولا يرى فيه إلا الحسن ، بفضل الذخائر العقلية التى حازها لنفسه العصر العباسى . وله من رسالة تعزية[1] :

« إذا استوى المعزَّى والمعزِّى فى النائبة استُغنى عن الإكثار فى الوصف لموقع الرزيَّة . . . وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقراراً له بالهلكة ، واعترافًا بالمرجع إليه ، وتسليما لقضائه ، ورضًا بمواضع أقداره ، وأسأل الله أن يُصَلِّىَ على محمد صلاة متصلة بركاتُها ، وأن يُوَفقك لما يُرْضيه عنك قولا وفعلا ، حتى يُكمل لك ثواب الصابر المحتسب وجزاءَ المطيع المتنجّزِ للوعد ، ويَرْحم فلاناً ويُحِله أعلى منازل أوليائه الذين رضى سَعْيهم ، وتطول بفضله عليهم ، إنه ولىٌّ قدير » .

والحيلة أيضًا فى هذه الرسالة واضحة ، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزَّى ، فهو أيضًا حرى بأن يُعَزَّى فيه ، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة ، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة ، بل يشمل كثيرين هو أحدهم . وقد أخذ يحتال على أن يَسْلُوَ عنه صاحبه ، تسليمًا للقضاء ، واعترافًا بأن كل من عليها فان ، ورضا بالمقادير ، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه للصبر على المصيبة ، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر ، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله وينزله مع أوليائه وأصفيائه فى الدرجات العلية . وله يهنئ بعض إخوانه بولاية[2] :

« أنا أهنئ بك العمل الذى وَليته ، ولا أهنئك به ، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب ، ويُصدره مصادر الحجَّة ويصونه من كل خلل وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة . قَرَنَ الله لك كل نعمة بشكرها ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٢ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٩ .

وأوجب لك بطَوْله المزيد منها، وأوْزَعَكَ (ألهمك) من المعرفة بها مايصونها من الفتن ويحوطها من النقص».

والرسالة مع إيجازها تبدأ بحيلة من حيل الفكر العباسى الخصب الحافل بما يلفت السامع ويروعه، وهى أن العمل هو الذى يهنَّأ بهذا الوالى، لا أن الوالى هو الذى يهنَّأ به، إمعانًا فى المدح والإطراء، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن فى الإيراد والإصدار، ومن يصونه ويحفظه من أى خلل أو تقصير، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة. ويدعو له بالأمن فى عمله والسلامة من الفتن والثورات، وهو خطاب مقتضب، ولكنه جامع شامل، مع اللفظ المنتقى والأسلوب المصفَّى. وله من رسالة فى ذم بعض الأشخاص وهجائه[1]:

«رجلٌ يَعْنُفُ بالنعم عُنْفَ من قد ساءته بمجاورتها، ويستخفُّ بحقها استخفافَ من لا يخفّ عليه محملها، ويقصِّر فى الشكر تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها.. فكيف يتسع الصدر للصبر عليه؟ إن الله لا يخاف الفوت فهو يُمْهله، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جلَّ وعزَّ إلى سلطان غيره فيعاجله».

وهذه الكلمات على قصرها من ألذع الهجاء، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذى لا يعرف قدرها، بل إنه يعنف بها عنف عدوّ غاشم، وإنه ليستخفُّ بحقوقها استخفافَ مَنْ ثقل عليه النهوض بها وحملها، وهو لذلك كله يطَّرح الشكر عليها اطراح الجاهل بأن الشكر هو الذى يكفل لها البقاء، وهو لا يدرى أنه مع طغيانه وبَغيه على نعمة ربه سيلقى جزاءه، إنه يُمْهله، لأنه لا يعرف أنه لن يخرج حين يموت عن دائرة سلطانه. والكلمات والعبارات مختارة بدقة. وله فى الدعوة إلى يوم أُنْس من رسالة[2]:

«لا عُذْر فى التخلف عنك، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك، فإن كنت سامحت على العُذر قبل الاعتذار، وسبقت إلى فضيلة الاغتفار، فلا زلت على كل خير دليلا، وإليه داعيًا، وبه آمراً، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قَطْراً (دموعاً منهمرة) وهاج شوقًا، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام، فننال حظًّا من محادثتك والأنس بك».

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ٩ / ٢١٩.
(٢) زهر الآداب ٣ / ٣٦١.

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه ، ويعتذر بكثرة أعماله ، ويتلطف معه ، فيجعله قَبِلَ عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره . وانظر كيف عبَّر عن مدى تأثرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قَطْراً . ودائماً لاتفوته الكلمة الموجزة المعبِّرة أدق تعبير وأقواه. ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعشَّرَتْ فى حبال غيره[1] :

« أصبحتُ — والله — من أمر فضل فى غرور ، أخادع نفسى بتكذيب العيان ، وأمنِّيها ما قد حيل دونه . والله إن إرسالى إليها — بعد ماقد لاح من تغيُّرها — لذلٌّ ، وإن عدمى عنها — وفى أمرها شُبْهة — لعجز ، وإن تصبُّرى عنها لمن دواعى التلف » .

والقطعة محبوكة العبارات ، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية إزاء تغيُّر فضل عليه ، متصوراً ثلاثة مواقف ، فهو إن راسلها كان ذلك ذلاً له وهواناً ما بعده هوان ، وهو إن انصرف عنها ولا يزال مشتبهاً فى أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً ، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدَّى به إلى التلف والهلاك . ودائماً نحسُّ عنده دقة التعبير ، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها . وله فصول بديعة تدور فى كتب الأدب من مثل قوله فى رسالة لصديق مصوِّراً مودته[2] :

« إنى أهديت مودتى إليك رغبةً ، ورضيت بالقبول منك مثوبةً ، فصرتَ بقبولها قاضياً لحق ، ومالكاً لرِقّ ، وصرتُ — بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة — مُرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليدين بالوفا » .

وانظرْ تصويره لمودته بأنها هدية أهداها لصاحبه ، ودائماً تُرَدُّ الهدايا ، وهو لا يريد لها ردًّا ولا جزاءً سوى قبول الصديق لها ، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضاً بحق ومالكاً لعبد ، جعل رِقَّهُ فى يديك وحريته طوع مشيئتك ، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه فى أخوته وصداقته . وهو يصوِّر نفسه، وقد قدَّم الهدية وتخيَّر جزاءها مودة صديقه بل قبوله لها، قد أصبح لسانه مرتهناً بحرمتها ويداه مقيدتين بالوفاء لها ونفسه مستعبدة له . ولا تُعْرَف بالضبط السنة التى توفى فيها سعيد، وأكبر

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ١١٩ .  (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٧ .

الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد ( ٢٥٦ – ٢٧٨ هـ ) . ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور مهارته البيانية فى الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد كان يُعْنَى أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهى التقطيع أحيانًا إلى السجع ، كما كان يُعْنَى بمعانيه وجَلْب ما يروق منها بدقته وطرافته .

## ٥

### أبو العباس بن ثوابة [١]

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أسرة أصلها مسيحى ، عملتْ فى دواوين الخلافة ، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع . وأول من لمع اسمه منهم محمد بن ثوابة وكان يعمل فى دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وكان ابنه جعفر يتولَّى ديوان الرسائل فى أيام عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد ، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة ، وخلفه على رياسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة ، وسبق أن عرضنا له فى الفصل الماضى وقلنا إنه كان يسجع فى رسائله الديوانية ، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رياسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة . ويبدو أن السجع نما على أيدى هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره فى الكتابتين الديوانية والإخوانية .

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبى العباس بن ثوابة ، ولكن لابد أن أباه وكان يشتغل فى الدواوين أخذه مبكراً بالدرس والتحصيل ، بادئًا معه من الكتّاب ، ومنتهيًا به إلى حلقات العلماء فى المساجد ، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقًا فيها منذ عصر المهتدى [٢] (٢٥٥–٢٥٦هـ) ، وما زال نجمه فى صعود حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد . وكانت لا تُعْقَدُ إلا لمن أثبت كفاءته وعُرفت بلاغته . وكان طبيعيًّا أن تكثر الصلات والمودات بينه وبين سعيد

---

(١) انظر فى أبى العباس بن ثوابة الفهرست ص ١٩٣ ومعجم الأدباء ٤ / ١٤٤ وجمهرة رسائل العرب ٤/٣٢٣ وما بعدها .

(٢) الأغانى ( طبعة الساسى ) ٢٠ / ٦٩ .

ابن حميد وغيره من كتّاب عصره وشعرائه، ولابن الرومى فيه مدائح مختلفة ، وكذلك للبحترى ويُرْوَى له توقيع وقّع به فى قصيدة له ، استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو : « مقضيّة ولو أتلفت المال ، وأذهبت الحال ، فقل — رعاك الله — ما شئتَ منبسطًا ، وثِقْ بما أنا عليه لك مغتبطًا ، إن شاء الله تعالى » . ويبدو أنه ظلّ على ديوان الرسائل حتى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ ، وكانت بينهما وحشة شديدة . ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه ، ثم قال أيها الوزير : ( لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ) ، فقال له ابن بلبل : ( لا تثريب عليكم ) يا أبا العباس ، ورفع مجلسه ، غير أنه صرفه عن الديوان وولاه نواحى بابل وسواد بغداد الغربى ، فضاعف — وزاد — فى الدعاء له ، ويقال إنه ظل على تلك النواحى حتى وفاته .

وأبو العباس أحد كتاب العصر وبلغائه ، وفى أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف ، ويضرب الرواة لذلك مثلا بعبارات له شديدة الغرابة ، وأنه قال يومًا وقد استمع إلى حاجم : علىّ بماء الورد أغْسِل فمى من كلام الحاجم . وأُثِرَ له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولى عهد المعتمد، ومرّ بنا أنه كان الخليفة الحقيقى طوال عصر أخيه ، ولذلك كانت العهود إلى الولاة تصدر عنه ، والعهد يبتدئ على هذا النمط[1] :

« هذا ما عهد به أبو أحمد الموفّق بالله ولىّ عهد المسلمين إلى فلان حين ولاّه الصلاة بأهل كورة الرَّىّ ودُنْباوَنْد ونواحيها ، والحربَ والأحداثَ فيهما . أمره بتقوى الله وطاعته ، وخشيته ومراقبته ، فى سرّه وعلانيته ، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به ، والانتهاء عما نَهَى عنه فيما وافقه وخالفه ، وأرضاه وأسخطه فإنه من يتّق الله يَقِه ، ومَنْ يعتصم به يَهْدِه ، ومَنْ يُطِعْه يتولّه ويَكْفِه ( إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ) . وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويضَ إليه ، والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عزّ وجلّ له إمامًا ، وسُنّةَ نبيه صلى الله عليه وسلم مثالا ، فإن فيهما دلالةً وتبْيانًا ، وضياءً ونوراً وشفاءً لما فى الصدور وهُدًى ورحمةً للمؤمنين . وأمره أن يكون أولُ

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٣٤ .

ما يُعْنَى به ويقدّمه، ويراعيه ويؤثره، إقامةَ الصلاة لمواقيتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداءِ فَرْض الله فيها ، إذ كانت عماد الدين ، وأفضلَ ما تقرَّب به المؤمنون ، وكان مَنْ أضاعها وقصَّر فى واجبها ، أشدَّ تضييعًا لما سواها من حقوق الله عَزَّ وجَلَّ وفرائضه ودينه وشرائعه ( وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين ) . وأمره أن يُلْهم نفسه فى كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره ، ذكرَ الله جل ثناؤه ، وألا يُمْضىَ أمراً إلا بعد استخارة الله عَزَّ وجَلَّ فيه، واستقصائه فى ذلك بالذى هو له أرضى ، وعنده أزكى ، فإن العاقبة للتقوى، وإن أفضل الأمور خَيْرُها عاقبةً ، وأحمدها مَغَبَّةً ، وما التوفيق إلا بالله ، عليه يتوكل المتوكلون » .

وقد استهلَّ أبو العباس بن ثوابة العهد — كما يلاحظ القارئ — بالسجع ، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثمانى صفحات ، فانصرف عنه مكتفيًا بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التى تتألف منها . وقد حاول أن يُنْهى كل أمر بآية أو كلمة من القرآن تناسبه . وهو يمْضى فى العهد ، فيأمر الوالى بحسن سياسته لأهل عمله وأخْذه لهم بالعدل والنَّصَفة وإحقاق الحقوق ، وأن يتخذ مساعديه فى إدارة الحكم من أهل العفاف والكفاية ، وأن يقدّم أهل الفضل والصلاح والمشايعين للدولة ويتخذ منهم مستشاريه ، وأن يقيم الحدود متبعًا لما جاء فى محكم التنزيل والسنة النبوية وما نصَّ عليه الفقهاء، وأن يجعل دَبْرَ أذنه ماقد يكون بينه وبين بعض الرعية من حقد وضغينة ، وأن يقمع أهل الدعارة والفساد بإقامة الحدود عليهم دون إفراط ، فإن لكل شىء قدراً، وأن يصرف عنايته إلى أطراف ولايته ، وخاصة التى تقابل الأعداء فيسدّ خللها ويرتق فَتْقها ، ويعاجل أى متسرع للفتنة أو الثورة بها . ويطلب إليه أن يراقب التجار ولا يدعهم ينقلون زَاداً ولا عَتَاداً من الأسلحة إلى ديار العدو ، وينزل العقاب بمن يخالف منهم هذا الأمر ، وهو يدلّ على يقظة الدولة . ويأمره أن يحسن التعاون مع صاحب الخراج وأن يقدم له ما يريد من المساعدين ، حتى يَدِرّ الخراج ويكثر حِلابه ، كما يأمره أن يتفقّد مَنْ فى السجون ، ويُكثر عَرْضهم والنظر فى أمورهم والأسباب التى حُبسوا بها ، آخذاً بمشاورة أهل الفقه فيهم . ومن أطرف ما فى العهد أن نراه يأمر الوالى بالأمانة فى

ولايته ، وألا يأخذ أى ضرائب استثنائية من الرعية ، لا بحجة الضيافة ولا بأى حجة أخرى . ومرّ بنا فى الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصًا وقُطّاع طرق يختلسون الأموال من الناس دون أى رحمة أو شفقة ، وكأن أبا العباس بن ثوابة يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالى إنه :

« أمره ألا يَقْسِم على أهل عمله قسمةً بسبب نُزُل ( ضيافة ) ولا غيره ، مما كان شرار العمال يُوظِّفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنَّب الطُّعَم (وجوه المكاسب) الشائنة ، والمكاسب الرديئة . ويحذر أن يعرض لشىء منها ، أو يطلقه لأحد من كُفاته ( معاونيه ) فيَرِد عليه من النكير ما هو حرىٌّ بتوقيه والتصوُّن عنه » .

ويعرض فى العهد لوظيفة الحِسْبة . وكان المحتسب يراقب الأسعار فى الأسواق ، ويقوم فيها مقام رجل الشرطة والقاضى معاً ولذلك كان يُختار من رجال الفقه والشريعة . فهو يحقق ويحكم ويدين ويردّ عن المظلوم الظلم ، ويراجع المكاييل والموازين ، ويعاقب الغاشّ المخادع ، وفى ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه :

« وأمره أن يتخيَّر للحِسْبَة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات ( السلع ) فى عمله مَنْ يُعْرَف بالقصد فى مذهبه ، والسِّتْر فى نفسه ، والعفاف فى طُعمته ( وجه مكسبه ) واستيفاء الحق فيما يقلِّده ويُستكفَى القيامَ به ، ويتقدَّم إليه فى أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التى يقع عمله فى الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورَفْع الغِشِّ ، وتجنب كل ما عاد بمضرَّة على المسلمين أو تحيُّف ( تنقص ) لهم ، وتعيير ( قياس ) المكاييل والموازين فى سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، وخَتْمها بالرصاص ، وحَمْل المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يرسُمه ، ويتقدم بامتثاله فى سائ[ر و]جوه الحسبة ، حتى لا يخالَفَ شىء منه إلى غيره ، ومعاقبة مَنْ عَسَى أ[ن يقدم] على مخالفته فيه ، [بما] يَرْدَعه ، ويعظ مَن سواه ، فإن الله عزّ وجلّ [يقول : ( ] أَوْفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا من المُخْسِرِين وَزِنوا بالقِسْطاسِ المستق[يم ولا تبخسوا ال]ناس أشياءهم ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين ) » .

وهى قطعة طريفة فى العهد ، إذ تصوّر أعمال رجال ،

يُشْتَرَطُ فيهم من معرفة بالشريعة وحدودها وأن يكونوا من التقاة أهل السَّتْر والعفاف حتى لا يتحولوا إلى ذئاب فى الأسواق فارضين على التجار وأصحاب الصناعات هدايا ورشاوى ، من شأنها أن تفسد الذمم فساداً لا حَدَّ له ، وبالتالى تفسد الأسعار والبيع والشراء . ويصوّر مهمة المحتسب بأنها تصحيح المعاملات بين الناس ورفع الغش والخداع والمراجعة الدائمة لعيار المكاييل والموازين وختم الدقيق منها ختماً يدل على صلاحه ، بحيث لا يستعمل سوى الموازين والمكاييل المختومة التى أقرَّها المحتسب ، وكلٌّ من حدثته نفسه بمخالفة ذلك ينبغى أن يُنْزَل به المحتسب عقاباً رَادِعاً . وقد كُتب العهد بدون سجع ، وكان ابن ثوابة يفزع إلى السجع كثيراً ، ولعله لاحظ أنه موجَّه للرعية كما جاء فى نهايته ، وأنه ينبغى لذلك أن يكون فى لغة واضحة لا يحْجُبُ السجعُ بعضَ معانيها ، ولا يحول بين العوام وتبين ما فيها .

وأثِرت له رسائل إخوانية كتب ببعضها إلى نفر من الوزراء ، وهو فيها تارة يُكْثِر من السجع وتارة يتخفَّف منه بل قد يُهْمله تماماً على نحو ما نجد فى الرسالة التالية التى كتب بها إلى الوزير إسماعيل بن بُلْبل يهنئه بمصاهرة الموفق ولىّ عهد المعتمد وفيها يقول[1] :

« بلغنى للوزير — أيَّده الله — نعمةٌ زاد شكرُها على مقادير الشكر ، كما أرْبَى مقدارُها على مقادير النعمة ، فكان مَثَلُها قولَ إبراهيم بن العباس الصولى :

بنوك — غَدًا — آلُ النبيِّ ووارثو الـ ... خلافــة والحاوون كِسْرَى وهاشما

وأنا أسأل الله تعالى أن يجعلها موهبة ترتبط ما قبلها ، وتنتظم ما بعدها ، وتصل جلالَ الشرف ، حتى يكون الوزير — أعزَّه الله — على سادة الوزراء موفياً ، وبجميل العادة مستحقاً ، ولمحمود العاقبة مُسْتوجباً ، وأن يُلْبِس أولياءه من هذه الحُلَل الغالية ما يكون لهم ذكراً باقياً وشرفاً مخلَّداً » .

والرسالة تخلو من السجع ، ولكنها تحوى الكثير من المهارة الفنية ، وخاصة فى تقطيع الجمل وتقابلها واستيفاء معانيها ، على نحو ما ينضح فى العبارتين الأوليين

---

(١) معجم الأدباء ٤ / ١٥٧ .

منها ، واقتبس فيها بيتاً لإبراهيم بن العباس الصولى شديد الصلة بما تريد الرسالة أن تؤدّيه من معان . ويُعقّبه بعبارات مقطّعة متقابلة ، وكأنما الكلمات تتشابك بالأيدى ، فقد كان يعرف كيف يضمّ اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير ، بحيث تتماسك الكلمات وكأنها فى بناء متراص . وأشرنا فى الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر فى رسالته العذراء التى وجّه بها إلى الكتّاب أن يقولوا فى رسائلهم : « جُعلْتُ فداك » وإنما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشر ، ويقول إن كتّاب العسكر ( الجيش ) وعوامّهم أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم وجعلوها دَأبهم فى مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . وكأنما صَدر أبو العباس بن ثوابة عن روح هذا النقد ، إذ كتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قولهم : « جُعِلْتُ فداك » فعاتبه عبيد الله ، ولم يكد يسمع عتابه ، حتى كتب إليه برسالة ثانية ، يصوّر فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف ، وفيها يقول[1] :

« الله يعلم — وكفى به عليماً — لقد أردت مُكاتبتك بالتفدية ، فرأيت عَيْباً أن أفْديَك بنفسٍ لابد لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومَنْ أظهر لك شيئاً يُضْمر خلافه فقدغَشّ ، والأمرُ إذا كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملكٌ لا يتحقّق ، وعطاء لا يتحصّل ، لم يجز أن يخاطَب به مثلك ، وإن كان عند قوم نهايةً من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقاً من طرق التقرب » .

وقد التمس أبو العباس بن ثوابة لإنكار التفدية علة أخرى غير علة ابن المدبر ، لعلها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبى فى العصر من رقة بالغة عند بعض الكتاب ، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفدية بنفس فانية غير باقية ، وهو إفراط فى الحسّ والشعور والرقّة والدماثة . وبذلك نفهم عبارة أبى العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم ، فقال : علىّ بماء الورد أغسل فمى من كلام الحاجم ، وكأن سماع الكلام الذى لا يعجبه لا يؤذى أذنه فحسب ، بل يؤذى فمه ، وإنه لإيذاء غريب ، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبى العباس ، فقد كان يتكلف

---

( ١ ) زهر الآداب ٣ / ١٦ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٣٣٢ .

الدماثة والحسّ المفرط والشعور الحاد . وله من فَصْل فى رسالة كتب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان ، يقول فيه[1] :

« لم يُؤْتَ الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوتَ من عدم وسيلة ، وغُلَّةُ ( حرارة ) الصَّادى ( العطشان ) تأبى له انتظار الوارد ، وتُعْجل عن تأمل ما بين الغَدير والوادى ، ولم أزل أترقَّب أن يُخْطِرنى بباله ، ترقب الصائم لفطره ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن بَرَح ( انكشف ) الخفاء وكُشف الغطاء ، وشَمِتَ الأعداء ، وإن فى تخلفى وتقدّم المقصّرين لآيةً للمتوسِّمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والفصلُ مكتوبٌ بكل دقة ، فالوزير لم ينسه نقصًا فيه إذ اكتملت فضائله وأوفت على الغاية ، وهو لم يُؤْتَ من نقص ، فبلاغته ذائعة معروفة يعرفها القصىّ والدانى ، وإذن فليبحث عن علة ، ويقول إن الحرارة المشتعلة فى صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه ، وتُعْجله عن النظر فيما بين الغدير والوادى من خيرات ومياه وطيبات . ويمضى فيقول إنه كان يترقب إقباله ترقب الصائم الجائع لفطره والسارى بالليل الداجى لفجره ، غير أن أضواء الصباح العابس تفلَّتت من الأفق ، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمله برعايته ، وشمت الأعداء . وكأنما يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتابًا رفيقًا وهو يختمه بقوله إنه أصبح فى عداد المتخلفين ، بينما تقدَّمت فى رحاب الوزير كثرةٌ من المقصّرين الذين لا يبلغون شأوه ، ويقول إن فى ذلك لآية للناظرين ، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذى لا يُحْمَدُ فى مكروه سواه . والعبارات فى الفصل متسقة اتساقًا وثيقًا ، إذ لاءم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق ، ونحسُّ انسجامًا بين الكلمات منذ العبارتين الأوليين ، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجعتين . ويضيف إلى ذلك فى العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة ، حتى إذا سَوَّاهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معًا . وبذلك يَبْلغ أبو العباس بن ثوابة صاحب الدماثة المفرطة والرقة المتناهية كل ما كان ينتظر له من تأنق فى التعبير الأدبى ، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص ، زخرف يحمل كل ما يريد من وَشْى السجع ووشى الصور النادرة . وله من جواب عن تعزية[2] :

---

( ١ ) معجم الأدباء ٤/١٤٧ .

( ٢ ) جمهرة رسائل العرب ص ٣٣٣ .

« وصل كتابك بالتعزية عن أخى ، وقد جَلَّتْ مصيبتى به وعظمت ، فنكأت (جرحت) القلب ، وهدَّت الركن ، وأذهبت القوة ، ونغَّصت العيش ، وأزْرَتْ بالأمل . فعند الله أحتسبه ، وإياه أسأل تفضلا عليه ، وصفحًا عنه ، وتغمداً (غفرانًا) لذنوبه ، وصَبْراً على حادث قضائه فيه ، واستعداداً للموت وتأهبًا له ، فإنه مَصْرَعٌ لا بُدَّ منه ، وموردٌ لا مَحِيصَ عنه » .

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات ، فقد صوَّر حزنه على أخيه بجمل متناسقة ، ولا شك فى أنه بذل جهداً عنيفًا فى اجتلابها ووضْعها متلاحقة ، وكل جملة تضيف خطًّا إلى لوحة الحزن السوداء ، فعبارةٌ تحمل جرح القلب ، وثانية تحمل انهداد الركن ، وثالثة تحمل ذهاب القوة ، ورابعة تحمل تنغص العيش ، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل . ويتجه إلى الله بجمل مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه ، والغفران لذنوبه ، ثلاث دعوات ويقابلها لنفسه ثلاث أيضًا : الصبر على حادث القضاء، والاستعداد للموت بالعمل الصالح ، والتأهب له . وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها فى عبارتها ، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرائنها . ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحترى هجا بنى ثوابة فى قصيدة له فبعث إليه أبو العباس يترضَّاه بهدية نفيسة فردَّها وقال لحاملها قُلْ لأبى العباس : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ، فكتب إليه :

« أما الإساءة فمغفورة ، والمعذرة مشكورة ، والحسنات يُذْهِبْن السيئات ، وما يأسُو (يداوى) جراحك مثلُ يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددته علىَّ ، وأضعفته ، فإن تلافَيت ما فرَط منك أثبْنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احْتَمَلْنا وصبرنا » .

فتَقبلَ البحترىُّ ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه. والكلمات التى كتب بها إلى البحترى تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس ، وجَعْله القسطاس هذه المرة يلائم أشد الملاءمة بين العبارات ، فإذا هى تأخذ صورة سجع خالص ، وهو سجع حافل بالعذوبة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعدوا بقوة فى القرن الثالث الهجرى لشيوع السجع وانتشاره .

# خاتمة

هذا الجزء خاص بتاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى ، وقد بدأته بالحديث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير ؛ إذ غرب نجم الفرس ولم يعد لهم شىء من السلطان والنفوذ ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند الأتراك وقوادهم ، وكانوا بدواً رُحَّلاً ، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة ، ولا بفنون ولا بآداب ، ولا بنظم ملك وسياسة ، وكانوا قد قبضوا على زمام الحكم فى أواخر العصر السابق ، وظلوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر . وعبثاً حاول المتوكل التخلص منهم ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، وولوا مكانه المنتصر ، ومضوا يولّون ويعزلون ويقتلون فى الخلفاء ، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر ، فكانوا يسملون أعينهم . وطبيعى أن تتدهور الخلافة ، وزاد فى تدهورها انغماس الخلفاء فى اللهو والترف واشتداد سفههم ، إذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة ، غير مفكرين فى خزائن الدولة ولا فيما ينبغى أن تُنْفَقَ فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادى والحربى . وفسد الحكم فساداً لا حدَّ له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، وتؤخذ منهم الملايين ويصادَرُون ولا رادع ولا زاجر ، والشعب يقاسى كل صنوف البؤس والشقاء . وتشبّ ثورة الزنج فى البصرة وتظل أربعة عشر عاماً ، وتشبّ ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاولة ويُقْضَى عليها فى العراق والشام ، ولكن تظل منها شعبة فى البحرين ، تهدّد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر . وتكاثرت الأحداث ، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه . وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آيبة ، وتكاثرت ثورات العلويين فى الكوفة وطبرستان ، وثار الصفاريون فى سجستان وكرمان وفارس ، واستسلموا آخر الأمر . ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، وكأن ذلك كان إيذاناً بانتهاء هذا العصر وانتهاء

الحكم التركى معه ، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد ، وصار لهم السلطان فيها والصولجان .

وكان المجتمع العباسى يتألف من ثلاث طبقات : طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم ، وهى طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفى الدولة وأصحاب الإقطاعات ورءوس التجار . وطبقة وسطى ، معيشتها بين الترف والشظف وهى طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطى الدخل من التجار والصناع . وطبقة دنيا ، معيشتها بؤس وضنك وإعسار ، وهى الطبقة العامة من الزّراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق . ومن يطلع على ما كان يُنْفَقُ حينئذ فى قصور الخلفاء والوزراء يُخَيَّلُ إليه أنه يقرأ فى أقاصيص ألف ليلة وليلة ، إذ يبلغ ما كان يُنْفَقُ على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهرياً ، أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحياناً مليونين ونصفاً ، والقصور الباذخة تشيَّد ، والشعب يكدح ويتصبَّب من جبينه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار ، ولكل وزير حرسه الذى يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف . وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول ، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء ، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تُبْتَزُّ منها الأموال بكل الطرق ، واضْطُرَّ كثيرون منها إلى أن يصبحوا قَرَّادين وحوّائين ومتسوّلين بطرق شتى . وكان أهل الذمة يعامَلُون معاملة سمحة ، وكان كثير من النصارى يعملون فى البيمارستانات أطباء وفى الدواوين كُتَّاباً . وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء ، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر . وكان الرجال والنساء جميعاً يبالغون فى الأناقة : الأناقة فى الملبس وكل ما يتصل به من طيب وعطر . وتفننوا فى المطاعم إلى غير حد كما تفننوا فى الحلواء وفى الشراب . وعُنُوا بالسمر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاهى . وكان الرقيق — وخاصة رقيق الجوارى — يملأ الدور والقصور ، وكانت النخاسة قائمة على ساق ، وكانت دورها فى الكرخ وغير الكرخ تكتظُّ بالقيان . ولم يُعْنَ المجتمع العباسى بفن كما عُنى بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان : محافظة ومجددة ، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً . وأثَّر الجوارى حينئذ آثاراً كبيرة فى شيوع الظرف والرقة واللطف . وظلت موجة المجون

والشعوبية والزندقة حادّة فى العصر ، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلىء بحانات الخمر ، وكان الناس يقصفون ويمرحون فى أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس . وكانت نار الشعوبية لا تزال مُتَّقِدَة ، وصَبَّ عليها الجاحظ وابن قتيبة مياهاً كادت تطفئها إلا قليلا ، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد والزندقة ، ومن رءوس الزنادقة الملحدين فى العصر ابن الرَّاوْندىّ ومحمد بن زكريا الرازى . ولم يكن هذا كله الصوت القوىّ فى الأمة ، إنما كان الصوت القوى هو الانصراف عن المجون وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الحنيف والاستماع لوعّاظه والالتفاف حول عبّاده ونسّاكه . وهيأ ذلك لاتساع حركة التصوف ، وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثانى الهجرى ولكنها تأخذ حقّاً فى الازدهار بهذا العصر ، إذ أتيح لها أعلامٌ أرسوها ، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة .

ونشطت الحياة العقلية نشاطاً واسعاً ، وكانت المساجد أشبه بجامعات حرة ، والطلاب يفدون عليها من كل صوب متحولين من حلقة إلى حلقة ناهلين ما يشاءون من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية . وقامت بجوار المساجد دكاكين الوراقين التى كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما تُرجم من علوم الأوائل وثقافات اليونان والفرس والهند . وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان عاماً مثل خزانة الحكمة ، ومنها ما كان خاصاً لبعض الأفراد . وتُرْوَى أقاصيص كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم فى سبيله وانقضاضهم — حتى العامة منهم — عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ولعل ذلك ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب ، حتى يتزوّد منها بطرق يسيرة سهلة . ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتدماً ، ويتطور النقل من النقل الحرفى إلى نقل معانى الفِقَر بحيث تصبح صياغة الكتب المترجمة ناصعة شديدة النصوع . ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نهضة واسعة ، وليس ذلك فحسب ، فقد أصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهون مثل الكندى فى أوائل العصر والفارابى فى أواخره . وتزدهر العلوم اللغوية والنحوية ، فتُشْرَحُ النصوص القديمة شروحاً موسّعة ، وتوضَعُ بعض المعاجم ، وينشط تلامذة المدرستين البصرية والكوفية فى النحو ، وتنشأ المدرسة البغدادية . وتكثر حينئذ المباحث البلاغية

فى بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين ، ويتم الغلب للأخيرين ، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف « البديع » ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه ، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة ، ويُصْدر قدامة كتابه « نقد الشعر » . وتنشط الكتابة التاريخية فى السيرة النبوية وفى تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء . وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القرَّاءَ السبعة المشهورين على العالم العربى الذى ارتضى ما أدَّى فى ذلك من جهد علمى خصب . ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصوفية ، وبالمثل نهض تدوين الحديث ، ووُضعت فيه كتب الصحاح الستة . وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة ، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهرى الذى كُتب له الذيوع فى الأندلس والمغرب وخاصة فى عصر دولة الموحدين . وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم ، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو على الجُبَّائى وابنه أبو هاشم ، وتفرَّع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعرى الذى يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، والذى كُتب له الانتشار فى العالم الإسلامى .

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره ، ويظل اللغويون يقدِّمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، ودعَمَ هذا الوقوف مباحثُ النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربى . وأخذت تنشأ عربية مولَّدة ولكنها لم تَجرُؤ على ألسنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئًا من الضَّيْم ، إذ كانوا يتمثَّلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تمثلا تامًّا . وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية ، مما جعل عقولهم تحفل بذخائر خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعد فى الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية ، وحتى البحترى الذى اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربى يمسُّه حظ من الثقافات المعاصرة . وكان حظ ابن الرومى وافراً ، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشيء وذمه . وظل الشعراء يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية ، وسجَّلوا فى مدائحهم البطولات الحربية ،

واحتفظوا فيها أحيانًا بوصف الأطلال نافذين إلى خواطر بديعة . وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء ، واتسعوا فى وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها. ونشط الهجاء ، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقير ، ونفذ فيه ابن الرومى إلى نوع جديد من الهجاء الساخر . وظل الفخر نشطًا ، واحتدم الرثاء ، وتفجَّعوا على أبنائهم تفجعًا مريراً ، كما تفجعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج . ولابن العلَّاف مرثية فى هِرّ تُعَدُّ من عيون الرثاء ودُرَره . وصوَّروا فى عتابهم واعتذاراتهم رقة أهل الحضر ودماثتهم . وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادىّ الماجن ، ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعانى والأخيلة ، ولكثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم . ونشط شعر الزهد نشاطًا واسعًا . وأكثروا من التهانى والتراسل بالأشعار مع الهدايا ، وللبحترى وصف رائع لإيوان كسرى . ولهم أشعار كثيرة فى وصف قصور الخلفاء وبذخهم فى البناء ؛ وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين ، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهى ، وفسَحوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف وللشعر التعليمى على نحو ما يلاحَظ عند ابن الجهم وابن المعتز فى نظمهما للتاريخ ، وعند ابن دُرَيد فى نظمه للمعارف اللغوية .

وأعلامُ الشعراء فى العصر على بن الجَهْم والبُحْترى وابن الرومى وابن المعتز والصَّنَوْبَرِىّ ، فأما ابن الجهم فقرشى الأصل وُلد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فمدح المعتصم والواثق ويتخذه المتوكل جليسًا ونديمًا بينما يدبّج فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل فى الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى ، فتكاثر خصومه ، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عامًا ، ثم نفاه إلى خراسان . وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك فى نضال البيزنطيين ، ولكنه قُتل دون غايته . وأروع أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وليالى الأنس بالكَرْخ ، وأكثرها توهجًا تصويره لصلابة نفسه حين سُجِنَ وصَلِىَ نار النَّفْى ، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والمحن أنّ تمسّ نفسه .

وكان البحترى عربيًّا شاميًّا من طيء ، سال الشعر على لسانه مبكراً ، وفى حلب تعرَّف بفتاة تسمَّى عَلْوة ، ظلت لا تَبْرَحُ ذاكرته ، ولقى فى حمص أبا تمام حامل لواء الشعر فى عصره غير مدافَعٍ ، واستمع إلى شعر الفتى الناشئ ،

فشجّعه ، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد فى شعره . وقد عكف البحترى على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتمثله . وقدّمه أبو تمام إلى ممدوحيه ، ونزل سامرّاء وأصبح شاعر البلاط الرسمى من عهد المتوكل إلى عهد المعتمد . ولم يكد يترك وزيراً ولا موظفاً كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه . وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة فى عصره ، ويعدّ بحق أستاذ الفن الموسيقى فى الشعر العربى ، وكأنما وقف على جميع أسراره ودقائقه ، وأكثر شعره فى المديح ، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صوّر معركة بحرية بقيادته دُمّر فيها الأسطول البيزنطى . ولم يكن بارعاً فى الهجاء ، وله فخر ضعيف . ومراثيه قوية ، وله غزل يترقرق فيه الوجد كما يترقرق الماء فى الغصن ، وكان ماهراً فى وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة .

وكان ابن الرومى يونانى الأصل وُلد ونشأ ببغـــداد ، وكانت ملكاته خصبة أروع ما يكون الخصب ، وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير ، وتُرْوَى عنه فيه أقاصيص كثيرة . وكان يتشيّع ، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورُّون عنه ، كما جعل أبواب الخلفاء والوزراء تُغْلَقُ دونه ، ووَيْلٌ لمن كان يهجوه . وتردّد فى ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجوارى والقيان ، واستطاع بملكاته الخصبة أن ينفذ إلى لون ساخر جديد فى الهجاء كما أسلفنا ، وله مراث تفيض بالحسرات واللوعات ، وعتابه لأبى القاسم التَّوَّزِىّ وحواره مع هنّاته من أطرف ما نظمه شعراء العربية ، وله فى الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يُشْغَفُ بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة ، وهو يُكْثِر من وصف مجالس الأنس وألوان الطعام ، وله أشعار بديعة فى الزهد .

وكلّ الشعراء السالفين من أبنـــاء الشعب ، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل فى الخلافة نحو ثلاثة أعوام ، وقتله الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة ، وأعادهما المعتمد إلى سامرّاء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثقافات ، وله مصنفات مختلفة أهمها كتابه البديع ، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية ، وله أصوات حملتها العصور بعده ، وله مدائح مختلفة فى عميه المعتمد والموفق وفى المعتضد وابنه المكتفى . وكانت مأساته فى أبيه وجدّه تصرفه عن التفكير فى الخلافة ، ولكن حدث أن تولاها المقتدر وهو

غلام ، وتُجْمع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خَلْعه والبيعة لابن المعتز ، ويكون فى ذلك حَتْفه . وآثار بيئته المترفة واضحة فى أشعاره ، وخير مدائحه ومراثيه ما نظمه فى ابن عمه وصديقه المعتضد ، وله فخر كثير وفيه يلوِّح من حين إلى حين فى وجوه العلويين ، بأن أسرته أحق منهم بميراث الخلافة. وله أشعار كثيرة فى الغزل واللهو والخمر وذم الصَّبوح ، وتكثر فى شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلابه وآلاته .

وكان الصَّنَوْبرى من أهل أنطاكية ، ولكنه نشأ وتربَّى فى حلب ، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردَّد فيها على الموصل . وأكثر من المديح ، وكان شيعيًّا ، وهو لا يَغْلو فى تشيعه ، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم مواطنه الذى ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه . وفى أشعاره عناية واضحة بصناعتها ونثر فنون البديع فيها ، وله مدائح كثيرة ، وأروع مراثيه بكاؤه على آل البيت وتفجعه على ابنته ليلى ، وله غزل فى فتاة مسيحية . ويكثر من وصف الخمر ، وله أشعار فى الزهد ، وأهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضُرب المثل بروضياته ، وله غناء كثير بالثلجيات ، ويُعَدُّ فاتح هذا الباب فى العربية ، وله أشعار بديعة فى وصف الديك والصيد والنهرِ والجُرْذان ، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة .

وتكاثر شعراء السياسة والمديح والهجاء فى العصر ، وفى مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين ، إذ كانت أموال الدولة بأيديهم ، فكثر مدَّاحهم حتى بين الشيعة ، ولكل خليفة شعراؤه الذين أشادوا به وبأحقية بيته فى ميراث الخلافة ، ومن أهمهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولى ، أما مروان فكان يسير سيرة جَدِّه مروان بن أبى حفصة فى الطعن على البيت العلوى ، مما جعل المتوكل يغسره بعطاياه ، وكان يُعْنَى مثل جَدِّه بصقل أشعاره . وكان على بن يحيى المنجم من أصل فارسى ، وهو مثال للنديم المثقَّف ثقافة واسعة ، وله شعر كثير فى مديح الخلفاء والوزراء وفى تصوير سمو نفسه . وكان أبو بكر الصولى التركى الأصل من بيت علم وكتابة ، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته فى لُعْبة الشَّطرنج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد ، وخير مدائحه ما نظمه فى الخليفة الراضى ، وله غزل رقيق كثير . وكان شعراء البيت العلوى يقفون مدافعين منافحين عنه ، وأهمهم

فى العصر محمد بن صالح العلوى والحِمّانى والمفجّع البصرى، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز ، وزُجّ به المتوكل فى غياهب السجون ، ثم عفا عنه وعاش فى سامرّاء يمدحه ، وله أشعار طريفة فى زوجه وفى بعض أصدقائه . وكان الحِمّانى نقيب العلويين فى الكوفة وله مراث كثيرة ليحيى بن عمر العلوى يبكيه فيها بكاء حارًّا . وكان المفجّع شيعيًّا إماميًّا ، وكان يُكثر من مديح على وأبنائه . وكثرت الثورات السياسية فى العصر ، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور فى كتب التاريخ والأدب، ومثله يحيى بن زَكْرَوَيْه القرمطى الثائر بالشام وأبو طاهر الجنّابى صاحب الأحساء والبحرين. وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبى دُلف، أما ابن البعيث فثار بأذربيجان ، واستطاع حين أُتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستلّ غضبه بشعره فيعفو عنه . وأما حفيد أبى دلف فثار بأعمال الجبل بين همذان وأصفهان ، وله أشعار مختلفة يتهدّد بها قواد المعتضد وينذرهم — إن هاجموه — إنذارات خطيرة . ويَكْثُر كثرة مفرطة شعراءُ الوزراء والولاة والقواد ، وفى مقدمتهم أبو على البصير وابن أبى طاهر وابن دريد ، ولأولهم مدائح كثيرة فى الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة فى الغزل وفقد بصره وشيخوخته . ولابن أبى طاهر مدائح كثيرة فى الوزراء ، وله أهاج لاذعة . واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال والى الأهواز ، وخاصة بمقصورته فيه وقد شُرحت مراراً وتكراراً . وخمد فى العصر الهجاء القبلى ، وظل الهجاء الشخصى محتدماً ، ومن أكبر الهجّائين فى العصر الصَّيْمرى ، وخبره مع المتوكل والبحترى مشهور . وأشد إيلاماً ووَخْزاً منه فى الهجاء الحمدونى ، وقد دارت على كل لسان فى عصره أهاجيه فى طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد . وهجّاء العصر غير منازَع ابن بَسّام ، وله فى أبيه أهاج كثيرة ، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً فى عصره دون أن يَكْوِيَه بميسم هجائه .

ويكثر شعراء الغزل وشاعراته ، ويظل الغزل العفيف حيّاً حياة خصبة بجوار الغزل المادى الصريح ، ويكثر الناظمون للغزل من كل الأوساط ، وكثيرات من الجوارى فى العصر كن يَنْظِمْنَهُ ويتقنّ نظمه ، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهرى وفضل الشاعرة وكان خالد كاتباً فى الدواوين ، وله رقائق غزلية كثيرة يصوّر فيها حبّاً ظامئاً لا يَرْوَى أبداً ، أما

محمد بن داود فكان فقيهاً ظاهرياً وغزله أفلاطونى نقى طاهر ، وكانت فضل من مولّدات البصرة ، وهى أشعر الجوارى فى عصرها ، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد . وكان كثير من الشعراء ينغمس فى اللهو والمجون ، وكانوا يترافقون فى الديارات وفى الحانات وفى دور النخّاسين ومن أكثرهم خلاعة ومجوناً الحسين بن الضحاك وأبو الشِّبْل البُرْجمِىّ وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع . ونادم الحسين غير خليفة ، وهو فارسى الأصل ، وتَشيعُ فى غزلياته وخمرياته عذوبة مفرطة ، ولا يلحقه أبو الشبْل فى تلك العذوبة ولا فى خفة روحه . وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يُسْرف فى الخلاعة والمجون ، وله أشعار فى نصرانية هام بها هياماً شديداً ، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحاك وافر الموسيقى . وكان يقابل شعراء الخمر والمجون شعراءُ الزهد والتصوف ، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التى كانت تعيش على شظف العيش وتعرف ربَّها وتتقيه فى السر والعلن ، ويتغنّى كثيرون بأشعار زاهدة ، ويتكاثر المتصوفة ويتكاثر شعرهم فى المحبة الإلهية والفناء فى الذات العلية . ويظهر الحلاج الذى تمثل فى نفسه الحقيقة الإلهية ، مع إيمانه بتنزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى على نحو ما يصوّر ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد ، وهو أول من أعدّ لفكرة الحقيقة المحمدية وأن الأديان جميعاً تؤدّى إلى الله جلّ جلاله . وكان الشبْلىّ الصوفى لا يغلو غلوه ، إذ كان تصوفه سُنياً ، مما جعله ينحىّ عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود ، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات ، وكان يؤمن بفكرة الفناء فى الذات الإلهية . ويلقانا فى العصر شعراء كثيرون ينظمون فى الطرد والصيد ، وكان لهواً ومتاعاً للخلفاء والوزراء وعلية القوم ، وكانوا يخرجون إليه فى مواكب ومعهم الشعراء وكادوا لا يتركون ضارياً من ضوارى الصيد ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه ، كما نعتوا الصيد من حُمُر الوحش وأتنه وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وأرانبه والطير والإوز ، وبالمثل نعتوا آلاته من النَّبْل والسهام والفِخاخ والشباك والبندق . ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقَنَص أبو العباس الناشئ ، وكان من المعتزلة ، وكان عالماً وناقداً كما كان شاعراً بارعاً ، وقد اعتمد كشاجم على أشعاره فى صنع كتابه المصايد والمطارد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه فى الطَّرَد والصيد ، وله أشعار

بديعة فى وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطير وأيضًا فى وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلا بصيده . ويكثر فى العصر شعراء النزعات الشعبية ، وخاصة شعراء البؤس المكدين وغيرهم ممن صوَّروا ضيق الحياة وما يجرى فيها من ضَنْك شديد ، وصوَّر كثيرون التحامق فى صور هزلية . ولا يبارَى جَحْظة البرمكى — الضارب على الطُّنْبور — فى تصوير تعاسة الطبقة العامة ، وكثيراً ما صَبَّ سياطه على الحكام الفاسدين. ويمثل الخُبْز أرْزِىّ هذه الطبقة فقد كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، ولغته حلوة خفيفة ، وكان مواطنوه فى البصرة يشغفون بأشعاره شغفًا شديداً .

وازدهر فى العصر النثر ازدهاراً عظيمًا ، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة ، وشاع الاستواء والتناسق فيما تُرْجم من آثار ، وظهر الكندى أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة ، وكان شاعراً وناثراً ممتازاً إذ كان يتمثَّل العربية ودقائقها وخصائصها تمثلا بارعًا . وأخذت بيئات مختلفة تتجادل فى معايير البلاغة العربية ، فكانت هناك بيئة محافظة مثَّلها اللغويون ، وبيئة تفرط فى التجديد مثَّلها المترجمون ، وبيئة معتدلة مثَّلها المتكلمون ، وهى التى كُتب لها السَّداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وَضَع للبلاغة والبيان العربى من مقاييس فنية . وأبلى اللغويون بلاء حسنًا فى تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة فى كتابه « أدب الكاتب » الذى وضعه نبراسًا للكتَّاب يهتدون به . ويصنِّف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة . وتحاول بيئة المترجمين والمتفلسفة أن تضع تشريعًا لمقاييس البلاغة العربية فى النثر على ضوء المقاييس اليونانية ، ويكتب فى ذلك ابن وهب كتابه : «البرهان فى وجوه البيان» ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، بل يحتكم أيضًا إلى كتابيه فى المنطق والجدل . غير أن الأدباء فى عصره وبعد عصره ازورُّوا عن كتابه ومنهجه ، وسادَ بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبى العام الذى مثَّله الجاحظ فى كتاباته خير تمثيل . وضعفت الخطابة فى العصر ، ولكن المواعظ لم تضعف ، بل ازدادت اضطرامًا على أيدى المتصوفة ، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم فى قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة ، وتداولها الناس بحيث أصبحت ضربًا من ضروب الأدب الشعبى حينئذ ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة عن كراماتهم وأخبارهم. وليس ذلك فحسب ، فإن

بعض المتصوفة كتب فى تصوفه مقالات نثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحظُ فى كتاب الطواسين للحلاج . وكثرت المناظرات فى العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهـــاء ، ومناظرةُ الحسن بن عبد الله السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق مشهورة ، وبالمثل مناظرات اللغويين . وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى ليُعَنْوَنُ كثير من الكتب باسم الردّ أو النَّقْض ، وشاعت هذه الروح فى قصص وأخبار جُمعت ونُسِّقت فى كتابى المحاسن والأضداد والمحاسن والمساوى ، وهما كتابان نفيسان ، تلتقى فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصصية كثيرة عن الفرس والهند واليونان . وطبيعى أن تظل الرسائل الديوانية ناشطة فى العصر فقد كانت الدواوين تجذب إليها كتّاب العصر البارعين من أمثال عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الخصيب وزير المنتصر . ونبغ بعض الولاة فى كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومن كتابها النابهين لعهد المهتدى سعيد بن عبد الملك . وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة فى عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب ، وكان ابنه عبيد الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابهى الكتّاب . ويشيع السجع فى الرسائل الديوانية لعصر المقتدر ، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وَشْيه وزخارفه . ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها ، ولا تترك موضوعاً للشعر إلا وتشاركه فيه ، ويشيع فيها السجع مبكراً ، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعاً خالصاً ، منها رسالة طويلة لأبى على البصير كلها هجاء مرير . وكان أبو العَيْناء يسجع فى رسائله الشخصية . وكان ابن مكرم لا يُشيع السجع فى رسائله ، ولكن ألفاظه كأنها درر مختارة سواء فى اصطفاء اللفظ أو فيما يوشّيها به من زخرف البديع . وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع فى رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبى طاهر ، ومثله ابن المعتز . وتنشط كتابة الرسائل الأدبية ، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الازدواج ، على حين نجد ابن المعتز فى رسالة طريفة يمدح فيها سامرّاء ويذم بغداد يملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه . وكأن ذلك كله كان إرهاصاً بأن السجع سيعمّ مع أواخر القرن فى جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانية .

وأعلامُ الكتّاب فى العصر إبراهيم بن العباس الصولى والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حُمَيْد وأبو العباس بن ثوابة . وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد، وظهرت فيه مخايل الأدب مبكرة ، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل ، وظل يعمل فى دواوين الدولة وولاياتها حتى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والواثق وسجنه ، وعفا عنه الواثق، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتسمت له الدنيا، فقلّده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة ، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد . وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبرى ، وهو يصوّر عنايته بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط ، وقد يضيف إلى ذلك أحيانًا اجتلاب بعض الأسجاع . وفى تحميداته ما يدل على ثقافة اعتزالية واضحة . وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة فى الصوت والجرس والأداء، كما كان يعنى أشد العناية بمعانيه ، حتى تروق كتاباته اللسان والجنان، وقد تصبح بعض القطع عنده سجعًا خالصًا .

والجاحظ أكبر كتّاب العصر ، بل أكبر كتّاب العربيه قاطبة ، وقد نشأ بالبصرة وتمثّل كل ما كان فيها من معارف ، وهو معتزلى كبير بل صاحب مذهب اعتزالى قائم بنفسه سُمّى الجاحظية نسبة إليه . وهو لا يبارَى فى وضوح كتاباته وقدرته على التوليد فى المعانى ، واستنباط خفياتها ودقائقها . وقد صوّر فى أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا . وكان يُعْنَى بصياغته عناية كاملة ، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذى ابتكره ، ونقصد أسلوب الازدواج، وحقًا نجد له مقدمات عند غيره ، ولكنه هو الذى استمسك به وأشاعه فى جميع آثاره ، مع روح الدعابة التى يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتى لا يمله القارئ . وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته : اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التى وضعها فى أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف ، وهى لا شك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه. واللون الثانى رسائله الشخصية وهى حافلة بمهارته فى استنباط الأفكار وجمال أسلوبه . ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة . واللونان الرابع والخامس هما القصص والنوادر ، إذ كان قصّاصًا ممتازاً كما كان بارعًا فى سرد النوادر .

وأكبر مؤلّف أدبى ظهر فى العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة ، وهو بحكم

ثقافته الدينية يبدو محافظًا فى بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التى ألهب بها ظهور الشعوبيين ، وأهم أسلحته الحربية التى اتخذها ضدهم فى رأينا أنه حاول فى كتابه « عيون الأخبار » المزج بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجًا أسقط به الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب ، فليس هناك ما يسمى فارسيًا مستقلا أو هنديًا أو يونانيًا أو إسلاميًا أو عربيًا ، بل هى ثقافة واحدة ، وهى ثقافة تشمل أيضًا ما عند أهل الكتاب ، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجديدة التى صاغها ابن قتيبة ، بحيث خَفَتَ صوت الشعوبية ، فكل ما كانت تفتخر به على العرب أصبح من صميم العربية . وصاغ ابن قتيبة ذلك فى أسلوب أدبى ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحيانًا والاسترسال أحيانًا أخرى . وقد يجرى السجع على لسانه ، ولكن دون أى تكلف ، ويتشبه بالجاحظ أحيانًا فى نقل الواقع وفى خلط الجد بالهزل وإيراد بعض النوادر .

وسعيدبن حميد من أصل فارسى ، عُنى أبوه بتثقيفه والتحق بالدواوين وتألق نجمه فيها حتى أصبح رئيسًا لديوان الرسائل فى عصر المستعين ، وينص الطبرى على بعض ما كتبه من رسائل ديوانية ، وكان يُعْنَى أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات ، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعًا ، وله بجانب رسائله الديوانية رسائل إخوانية بنفس الأسلوب الذى وصفناه ، ونحس عنده دائمًا رغبة قوية فى النفوذ إلى أفكار مبتكرة ، حتى لتصبح الرسالة ضربًا من الحيل العقلية يروع بطرافته ، مع دقة التعبير وجماله .

وأبو العباس بن ثوابة من أسرة أصلها مسيحى ، عملت فى دواوين الدولة العباسية ، وتميَّز هو من بين أفرادها فى منتصف القرن الثالث الهجرى إذ التحق بدواوين الدولة ، وما زال يصعد فى مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل ، وله عهد طريف إلى أحد الولاة كتبه عن الموفق ، وهو يصور فساد الحكم حينئذ ، كما يصور عمل صاحب الحسبة ، وله رسائل إخوانية مختلفة ، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الحاد كما يتضح السجع مضيفًا إليه مادة تصويرية بديعة .